١٦ فبراير سنة ١٩٦٧

المكتبة الثقافية
جامعة مصر
١٦٩

اليهود
أنثروبولوچيًّا

الدكتور جمال حمدان



اهداءات ٢٠٠٢

اسرة الاستاذ/ محمد حسنين كرام

الاسكندرية

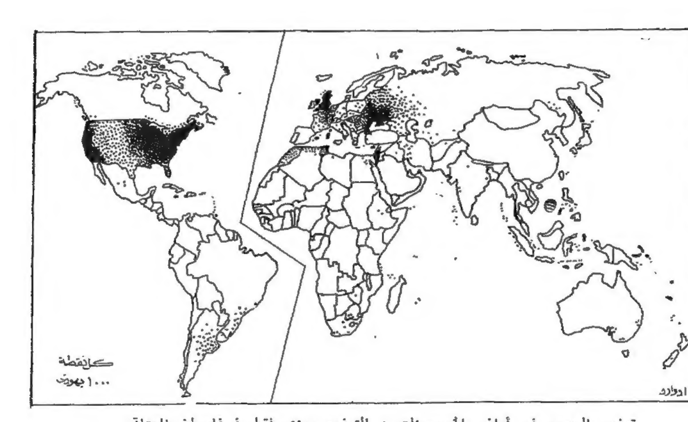
المكتبة الثقافية
١٦٩

اليهود أنثروبولوجيا

الدكتور جمال حمدان

دار
الكاتب العربي
للطباعة والنشر
بالقاهرة

بإشراف: د. شكري محمد عياد



توزيع اليهود فى أواخر الخمسينات • التوزيع رمزى فقط فى فلسطين المحتلة

اليهود
انثروبولوجيا

« ان العرب واليهود ابناء عم من الناحية العنصرية » . بهذه الجملة الخطيرة وبهذا الجزم القاطع يخاطب فيصل بن الحسين ، الهاشمى الذى سيصبح ملكا على العراق فيما بعد ، يخاطب القاضى الامريكى اليهودى فيلكس فرانكفورتر فى ١٩١٩ . وهو بعد ان يضيف الى قولته التشابه فيما تحمله العرب واليهود من اضطهادات ومظالم وفيما تمكنوا من القيام به فى طريق تحقيق اهدافهم القومية ، يرتب على تلك المقدمة نتيجة سياسية تتفق معها فيما يبدو له وهى « اننا سنرحب باليهود ترحيبا قلبيا فى عودتهم الى البلاد ... وهناك مجال فى سوريا يتسع لنا جميعا » . ويعود نفس المتحدث الى نفس الفكرة ليؤكدها فى مؤتمر الصلح بباريس فى نفس العام فيعلن ان « هناك صلات وثيقة من القرابة والدم بين العرب واليهود ، كما انه ليس ثمة تعارض واضح فى الصفات المميزة للشعبين » ..

وبعد نحو نصف قرن من هذه التصريحات التى تصدر على مستوى القيادة السياسية ولكنها تتكلم ، أو تسمح لنفسها أن تتكلم ، كما لو بلسان الانثروبولوجيين تعود نفس النغمة لترتفع على نفس المستوى وبنفس اللسان ، حين أعلن السعودى فيصل أثناء زيارته للولايات المتحدة فى العام الاخير انه لايكن شيئا ضد اليهود (يقصد

تمييزا لهم عن الصهيونيين) «لاننا أبناء عمومة فى الدم». وهذا حسين الاردن آخر الهاشميين يأتى من بعده ليعلن أخيرا جدا أن العرب واليهود عاشوا مراحل طويلة فى التاريخ جنبا الى جنب «فى صداقة وتعاون كأقارب وجيران ..

عميقة اذن هذه الفكرة ، فكرة قرابة الدم بين العرب واليهود ، ومنتشرة متفشية هى اذن بين الكثيرين لا فى الخارج فحسب ولكن بين العرب أنفسهم ، بل وعلى مستوى قياداتهم ، بغض النظر عن كونها قيادات رجعية دمية فرضت أو فرضت نفسها عليهم . ولاجدال أن لهذه الفكرة نتائجها وتخريجاتها السياسية التى يمكن أن تترتب عليها ، كما فعل فيصل بن الحسين فى الواقع حين رحب باليهود فى سوريا فى النص السابق !

فرغم أن من الثابت المقرر فى القانون الدولى أن ترك شعب لوطنه آلافا سحيقة من السنين لايمكن أن يحرمه كل حق فى المطالبة بالعودة اليه الآن ، ورغم أن الفقهاء الدوليين يسخرون من مجرد فكرة اعادة تشكيل الخريطة السياسية للعالم على أساس غزوات وهجرات وتوزيعات الماضى الغابر ، الامر الذى يمكن أن يقلب صورة الدنيا رأسا على عقب بشكل ساخر بل سخيف لايتصور ، نقول رغم هذا كله فان فكرة قرابة العرب واليهود فى الدم قد يمكن أن تلقى بعض ظلال على قضيتنا المصرية الاولى فى

فلسطين ، وقد يمكن أن تفتح بابا للحلول الخاطئة او الخائنة ، سيئة النية أو ساذجة النية .

وليس هذا مجرد استدلال أكاديمى أو اسقاط منطقى ، وانما هو بالفعل مانجده فى أكثر من دائرة من الدوائر العربية وغير العربية . فليس بعيداً مشروع الملك عبد الله ، الذى اقترحه بنفسه على بريطانيا حلا لمشكلة فلسطين فى الاربعينات ، من انشاء «مملكة سامية» يكون هو على رأسها ويكون لليهود فيها حكمهم الذاتى ! وفى السنوات الاخيرة ترددت فكرة « الاتحاد الفيدرالى السامى » بين بعض اليهود من صهيونيين وغير صهيونيين وضد صهيونيين . ولعلنا أن نكتفى منها هنا بذكر مشروع الفريد ليلينتال فى كتابه الاخير The Other Side of the Coin الذى يقترح فيه أن يعود الصهيونيون الاسرائيليون الذين من أصل أوربى الى أوربا ، ويبقى الاسرائيليون الذين هم من اصل شرقى فى فلسطين ، وذلك مع عودة عرب فلسطين اليها ليعيشوا معهم فى دولة واحدة جديدة ، تدخل مع الوقت فى علاقات اقتصادية مع بقية الدول العربية ، متطلعة الى اتحاد اقتصادى مع الاردن وغزة ومتجهة فى النهاية الى « اتحاد سامى » كبير !

ولسنا هنا بصدد مناقشة هذه المشروعات او نقدها ، فكل حل لايعيد الوضع الى ماكان عليه قبل ١٩٤٨ بل قبل ١٩١٨ مرفوض بلا نقاش ، وكل حل لايزيل اسرائيل من الوجود لامحل له من البحث العلمى ، ولكن سؤالنا المحورى هاهنا هو الاساس الجنسي المزعوم في تلك المشروعات : احقا نحن اقارب اليهود وابناء عمومتهم ؟ على أى

أساس علمى ذلك ، وأى دليل تاريخى ينهض بذلك ؟ واضح أن المجال هو مجال الانثروبولوجى والانثروبولوجيا ـ علم الانسان ـ بما يحلل من تاريخ قديم وحديث وبما يدرس من لغة ووثائق دينية وبما يقيس من أجسام وصفات تشريحية وراثية ... الخ .

ونحن نلاحظ أن أغلب كتاباتنا فى العربية عن العدو الاسرائيلى تأخذ فى جملتها الصبغة السياسية المباشرة أو غير المباشرة التى تعامل العدو كمعطيات مفروغ منها أو ككم معلوم بدرجة أو بأخرى دون ان تحاول ان تنفذ الى حقيقة كيانهم وتركيبهم : فالكل يهود أو صهيونيون ، والكل يعيشون فى كنف الاستعمار وحمايته ، والكل أتى بصورة غامضة من نسل يهود الشتات الذين أتوا بدورهم بطريقة ما من سلالة يهود فلسطين التوراة ... الخ .وفى هذا الاطار التجريدى الضيق ، أو المتعجل غير المستأنى ـ الذى قد يكون عمليا ومفهوما فى ذاته ـ تبدو صورة العدو فى أذهاننا باهتة عائمة بالغة السطحية ، ونبدو أحيانا ـ اكاد اقول ـ كما لو كنا نطارد شبحا ! ونحسب أننا لهذا كله بحاجة الى دراسة علمية محققة تقتنص هذا الشبح ، تجسده ، ثم تشرحه أصلا وتاريخا ، جنسا وتركيبا ، تطورا وتوزيعا ... الخ .

ونحن هنا سنبدأ بالاصول القديمة فى التاريخ الجنسى والدينى ، ثم نتتبع انتشار اليهود فى العالم هجرات وتوزيعا ، حتى اذا ما اكتملت لنا الصورة الراهنة حللنا التكوين الانثروبولوجى لليهود حتى نعرف من هم وما الدماء التى تجرى فى عروقهم ، والى أى حد ينتمون

الى أصـــولهم الاولى ومن ثم الى اية درجة من القـــرابة ينتسبون الى العرب أو ينتسب العرب اليهم .

وفى تقديرنا ان مثل هذه الدراسة أصبحت ضرورة شرطية لأى فهم عربى سليم أو عرض لقضيتنا الكبرى بعد أن اختلط الامر بالدعايات الصـــهيونية المغرضة المضللة وتزييف التاريخ وابتسار الحقيقة العلمية ذاتها . كذلك لابد أن نبادر من البداية فنحذر من أن كثيرا من الكتابات العلمية البحتـــة فى الموضـــوع ينبغى أن تتنـــاول بحـــذر واحتراس شديدين لانها تعتمد ـــ فعلا ان لم تعترف علنا ـــ على المصادر اليهودية والصهيونية أساسا ، وهى من ثم قد تنقل عمـــدا أو عن غير عمـــد وجهات نظر محـــددة ومحسوبة سياسيا .

ونحن من جانبنا ـــ على صعوبة المحـــاولة نفســـيا وقوميا ـــ لن نترك لتحيزنا السياسى الحق والواجب أن يتدخل فى معالجة علمية موضـــوعية ، لا لســـبب الا لان الدراسة العلمية الخالصة تؤازر ـــ كمـــا يتفق ولحسن الحظ ـــ القضية السياسية وتدعمها ولاتتعارض معها فى الجوهر والصميم . ان الحق والحقيقة ـــ كما سنرى ـــ فى جانبنا على حد سواء .

فى التاريخ القديم

أول مانسمع عن اليهود فى التاريخ مع ابراهيم — أبى الانبياء ابراهيم الخليل — الذى ظهر مع قومه فى القــرن الثامن عشر قبل الميلاد كجماعة من الرعاة الرحــل على المشارف والتخوم الاستبسية لجنوب العراق الذى كان يــؤلف دولة الكلبانيين فى أور . ومن قبــل كان ابراهيم وقومه قد خرجوا من قلب الجزيرة العربية التى نشئوا فيها كجماعة من الجماعات السامية العديدة التى تأصلت فى ذلك « الخزان البشرى » الشهير الذى لم يتوقف عن أن يقذف — كاقليم طرد وكصحراء فقيرة ولكنها «ولود» — يقذف بالموجة تلو الموجــة الى منطقة الهــلال الخصيب المتاخمة والجذابة .

ففى حوالى ١٨٠٠ ق.م هاجر ابراهيم وقومه ، فى دورة عكس عقارب الساعة ، شمالا بغرب ثم جنوبا على طول حواف الهلال الخصيب حتى وصلوا الى حوران ثم الى فلسطين . وهناك سيولد لهاسحق ، ولاسحق سيولد يعقوب ، ومن أبناء يعقوب الاثنى عشر ستتاصل الاسباط أو القبائل الاثنتا عشرة الشهيرة فى التاريخ والتــوراة .

ولكن هجرة ابراهيم الى فلسطين وان كانت أولى هجرات القبائل اليهودية فانها لم تكن الاخيرة ، ذلك أنهم لم يأتوا مرة واحدة كجسم موحد ، وانما على عدة دفعات جاءوا ومن عدة طرق وتحت عدة قيادات . والهجرة الثانية مثلا كانت فى القرن ١٤ ق.م .

ولابد لنا هنا من وقفة سريعة عند تسمية — أو بالاحرى تسميات — اليهود . ثمة تسميات ثلاث مترادفات: اسرائيل والعبريون واليهود . والاولى نسبة مباشرة الى اسرائيل ، الاسم البديل ليعقوب . أما العبريون فالمقول انها مشتقة من هجرتهم من كلدان الى كنعان حيث «عبروا» النهر — نهر الفرات أو نهر الاردن ، لاندرى أيهما المقصود تماما — فسموا بالعبرانيين . ويقابل هذه التسمية عند المصريين القدماء كلمة Habiru ، وعند البابليين Khebirru ، ولو ان هذه وتلك تعنى ، فى رواية ، البدو او اللصوص او المرتزقة كما وصفهم اعداؤهم فى كنعان اشارة الى طبيعتهم كرعاة متخلفين حضاريا بالنسبة لهم . أما التسمية باليهودية فتدل أصلا على أبناء يهودا Jehudah ، Judah أحد أبناء يعقوب ، الذين اصبحوا يمثلون البقية الهامة من بنى اسرائيل بعد الاسر البابلى ، فصارت تطلق فيما بعد على الاسرائيليين جميعا . واسم يهودا نفسه قريب من اسم اله الشعب ياهو Jehovah Jahveh التى قد تكون بدورها تحريفا للنداء العربى يا هو (؟) .

كيف وجد اليهود فلسطين ؟ وجدوها أرض كنعان اساسا ، نسبة الى سكانها الكنعانيين . والكنعانيون فى التوراة إبناء كنعان بن حام بن نوح ، وهم أول من سكن فلسطين على ارجح الآراء . وفى الدراسات السامية القديمة ان الكنعانيين ـ هم الآخرين ـ قبيلة سامية من الساميين الشماليين ، جاءت أصلا من الجزيرة العربية منذ ٢٥٠٠ ق.م ـ وفى رواية أخرى منذ ٣٥٠٠ ق.م ـ وكانوا قد استقروا بفلسطين منذ الف ـ أو ألفى سنة واقاموا بها حضارة راقية . كذلك فان جزءا من الكنعانيين كان قد رحل منها الى الساحل اللبنانى حيث عرفوا بالفينيقيين . ومعنى أرض كنعان هو الارض المنخفضة .

الى جانب الكنعانيين فى فلسطين كان ثمة كوكبة اخرى من القبائل السامية الصغرى كالايدوميين والعمونيين والمؤابيين على تخوم أرض كنعان ، خاصة حول جنوب البحر الميت . وثمة كذلك كان العموريون بعيدا الى الشمال ، وهم اولاد اناك Anak فى التوراة ، وكانوا قد سيطروا على جزء كبير من فلسطين قبل الزحف المصرى الفرعونى نحو الشمال حوالى ١٦٠٠ ق.م. وحتى نستكمل الصورة ، يحسن أن نذكر أيضا ـ خارج فلسطين ولكن بجانبها توا ـ الآراميين الذين استقروا فى سوريا كموجة سامية منذ القرن ١٤ ق . م ؛ أى فى تاريخ يتعاصر مع الموجة الثانية للعبريين .

ولايبقى لنا الآن فى التتابع التاريخى سوى

الفلسطينيين Philistines الذين يعدون ـ وحدهم تقريبا من بين كل العناصر والموجات المذكورة ـ أحدث عهدا من العبرانيين فى المنطقة . أصل هؤلاء من « شعوب البحر sea-peoples » المشهورين فى التاريخ القديم والذين أتوا من العالم الايجى بعامة وانتشروا فجأة وبصورة درامية على سواحل اللفانت أو مشرق البحر المتوسط نتيجة اضطرابات فى موطنهم لعلها نجمت بدورها عن تدفق الاغريق . فقدر للفلسطينيين ـ الذين يرجع البعض كريت أصلا لهم ـ أن يستقروا على ساحل أرض كنعان فى ١٢٠٠ ق . م ، أى أيام حروب طرواده ، حيث أعطوها اسمهم منذئذ .

وقد كان على العبرانيين ليستقروا بارض كنعان أن يحاربوا الكنعانيين ، ولكنهم لم يسيطروا الا على التلال والاراضى الفقيرة الداخلية ، وظلت السهول الغنية فى أيدى الكنعانيين الاصليين . واغلب تاريخ اليهود فى تلك المرحلة تاريخ دموى لا اخلاقى يدور حول الحرب والغزو ، الا أن الهزيمة كانت من نصيبهم غالبا ، وعلى يد الفلسطينيين اقوى اعدائهم بصفة خاصة . حتى اذا كان منتصف القرن ١٧ ق.م ، اى بعد ١٥٠ سنة فقط من هجرة ابراهيم ، هاجر يعقوب وأولاده الى مصر بسبب القحط المشهور . وفيها استقروا بارض جاشان Land of Goshen (وادى الطميلات والشرقية) نحوا من ٢٥٠ سنة الى أن خرج بهم منها سيدنا موسى (من الجيل السابع بعد ابراهيم) حوالى ١٣٠٠ ق.م وذلك هربا من اضطهاد فرعون (رمسيس الثانى) الذى استعبدهم « ومرر حياتهم فى الطوب والملاط » انتقاما منهم لتعاونهم فى خيانة واضحة مع الهكسوس غزاة مصر .

وفى التوراة ان قوة هذا «الخروج» كانت ٦٠٠ الف نسمة . وكانت العودة الى أرض كنعان الهدف ، غير ان خوف اليهود من الكنعانيين «العمالقة» أدى بهم الى المعصية فعقاب التيه فى سيناء ٤٠ سنة . ويرى البعض ان الحكمة من التيه ، الذى امتد بذلك الى مدى جيل كامل تاريخيا فى بيئة صحراوية قاسية جغرافيا ، هو اخضاع اليهود لعملية صارمة من «الانتخاب الطبيعى» تصفى وتستبعد منهم العناصر الضعيفة الخائرة وتنتخب العناصر القوية الصلبة ، وبذلك تديل من جيل هش منسحق الى جيل مجدد فوار يصلح للرسالة . وهكذا كان ، الى أن قادهم يشوع الى نهر الاردن حيث انتزعوا بعضا من أرض كنعان فى الداخل ، ولكن دون العاصمة يبوس (القدس) وساحل الفلسطينيين .

وفى فجر الالف الاولى قبل الميلاد بالضبط (بالتحديد عام ١٠٠٠ ق.م) وحد داود الاسباط أو قبائل اسرائيل الاثنى عشر ، وهزم اليبوسيين والفلسطينيين وأسس ووسع مملكة اسرائيل حتى امتدت أرض اسرائيل Erets Israel » من دان فى الشمال الى بير سبع فى الجنوب ، واتخذت من يبوس عاصمة لها بعد أن تحول اسمها الى أورشليم Ierouschoulaim اى مدينة السلام . غير ان الدولة ــ التى لم تصل قط او بالكاد الى الساحل ــ لم تلبث أن انشطرت بعد خليفته سليمان صاحب الهيكل الى مملكتين : مملكة يهوذا جنوبا فى هضبة

يهودية ، وتضم قبيلتي يهودا وبنيامين ، ومملكة اسرائيل شمالا فى السامرة ، وتضم القبائل العشر الباقية . ومن المهم والطريف ان نلاحظ ان حدود هاتين الدولتين تتفق الى حد او آخر لا مع رقعة اسرائيل المزعومة حاليا وانما مع رقعة الضفة الغربية من دولة الاردن .

والمهم أن الدولتين ، اللتين أصبحتا متعاديتين متحاربين ، وقعتا فى سياسة المضاربة بين مصر والعراق أو الخضوع لهما ، فتعرضت المملكة الجنوبية لطرقات مصر مرتين الاولى على يد شيشنق والثانية على يد نخاو ، الى ان جاء دور المملكة الشمالية حين قضي عليها نهائيا سرجون الاشورى فى القرن ٨ ق.م (عام ٧٢١) ، ثم قضى نبوختنصر البابلى على الجنونية فى القرن ٦ ق.م حيث دمر أورشليم والهيكل (٥٨٦ ق.م) . وبذلك زالت الى الابد دولة اليهود فى فلسطين بعد حياة طولها أربعة قرون فقط يغلب عليها الطابع الدموى العنيف ، بينما أن كل اقامة اليهود المتصلة فى فلسطين لم تزد عن ستة قرون من ١٢٠٠ ق.م حتى ٥٨٦ ق.م .

الشتات

الشتات البابلى

واذا كانت الفترات السابقة معا هى المرحلة التكوينية ـ سفر التكوين ـ فان من بعدها يبدأ سفر الخروج والشتات Diaspora الذى يمكن أن نميز فيــه ثلاث دورات أو أربعا . فقد بدأ سرجون بنقل كثير من اسرائيلى السامرة من أبناء القبائل العشر الى بابل وأسكن مكانهم بعض أسراه من البلاد المفتوحة الأخرى . ولكنه نبوختنصر بالذات الذى نقل أغلبية اليهود ـ آخرون يقولون ربع سكان يهودية ـ أسرى الى بابل ، والمقدر أن عدد اليهود قبل ذلك بلغ زهاء ثلاثة أرباع المليون .

ذلك كان « الأسر البابلى » الشهير الذى يمكن أن يعد الشتات الأول . واذا كان الفرس ، بعد أن هزموا بابل (على يد كسرى ٥٣٨ ق.م) واحتلوها وممتلكاتها فى فلسطين ، قد سمحوا لليهود بالعودة الى أورشليم بعد نحو نصف قرن من الأسر البابلى ، فان قلة ضــئيلة هى التى عادت ، وتقدر بنحو ٥٠ ألفا وحتى هـــذه لم تجـــد ترحيبا لأن أرض أجدادهم كان يحتلها الآن أسرى سرجون

الذين وطنوا بها ، ولذلك أسـكنوا فى منطقة يهودية الجنوبيـة حيث لم يطرب لعودتهـم حتى اليهـود المقيمون أنفسهم ٠

أما الأغلبية المطلقة منهم فقد بقيت فى العراق حيث كونت مستعمرات هامة نمت حتى بلغت فى عهد المسيح مليونا بل وأكثر من المليون فى القرون التالية ابان العصور العربية الاسلامية ٠ وقد امتـد انتشار اليهود فى العراق شـمالا الى كردسـتان ٠ غير أن يهود العـراق ــ مـع كل سـكانه ــ تعرضوا للابادة مع الطوفان المغولى حيث هوى عددهم الى بضـعة آلاف فقط ٠ على أن يهود العراق كانوا نواة الشـتات شرقا ، فمنهم انشـطر يهود فارس الذين غادروا العراق لأول مرة فى عهـد كسرى، ولـكن هجرتهم الكبرى كانت فى القرن الثانى عشر الميلادى ٠ وبالمثل كان يهود هيرات فى أفغانسـتان ويهود بخارى وسمرقند فى التركستان شظية من نواة فارس ٠

كذلك يقـال أن يهـود القوقاز ــ الذين يردون مستعمراتهم المبعثرة فى تضاعيف جبالها هناك الى العصر الأشورى ، ولو أن أول ذكر لهـا تاريخيا يرجع الى القرن الخامس الميلادى ــ يقال انهم أتوا من فارس ونواتها القديمة ٠ ومن هذه المراكز الأولية والثانوية يمكن أن نتتبع انتشار اليهود حتى نهـاياته ومسـتعمراته القصـوى فى الشرق الأقصى بالهند والصين ٠

ولعل من الجائز لنا ان نذكر هنا يهود الجزيرة العربية قبل الاسلام ، ولو اننا لانعرف على وجه الدقة تاريخ ظهورهم بها والطريق التى سلكوها اليها ، ومن لم لاندرى اذا كان امتدادهم اليها يرتبط بالشتات البابلى او بما تلاه من شتات . ففى الجاهلية الأخيرة كان اليهود غير قليلين فى مدن وسط الجزيرة وجنوبها خاصة الحجاز واليمن . ففى الحجاز كانت المدينة وخيبر من معاقلهم ، بل كانت المدينة تحمل اسما يهوديا هو يثرب . غير أن الارجح أن يهود الجزيرة كانوا في معظمهم عربا محليين متحولين وليسوا من يهود فلسطين الوافدين . اما في اليمن بالذات فقد تحولت اعداد كبيرة من سكان العصر السبئى الى اليهودية ، بل كان احدملوك سبا في القرن السادس الميلادى يهوديا هو ذو النواس . كذلك فقد كان المهاجرون الحضارمة الذين عمروا الحبشة واسسوا الامبراطورية الحبشية يهوداً اصلا ثم تحولوا مبكرا الى القبطية غير ان ظهور الاسلام صفى اليهودية تماما في الجزيرة العربية نفسها فيما عدا اليمن حيث ظل اليهود الى وقتنا هذا »

هذا ، واذا كان شتات الأسر البابلى قد اتجه أساسا نحو الشرق ، فمن المحتمل أن بعض الهجرة اتجهت غربا الى شمال افريقيا (المغرب) حيث يدعى اليهود ممن يسكنون الجبال اليوم ويتكلمون البربرية أن أجدادهم تركوا فلسطين اليها قبل الأسر البابلى نفسه ، وحيث يسمون أنفسهم البلشتيم Plishtim ، والكلمة تحريف واضح لفلسطين . بل هناك من يرى أن من المحتمل أن اليهود دخلوا شمال افريقيا مع الفينيقيين ، والمؤكد على أية حال أن اليهودية كانت منتشرة ــ بالتحول ــ بدرجة ما في حين ما بين عدة قبائل بربرية حتى ما قبل قدوم الاسلام .

الشتات الهلليني

أما الشتات الثـانى من شـتات اليهود فيتعاصر مع المرحلة الهللينية التى ، بعد قرنين من السيادة الفارسية ، تبدأ بفتوح الاسـكندر وتستمر مع السلوقيين والبطالسة ثم البيزنطيين • والاتجاه العـام فى هذا الشتات هو نحو الغرب هـذه المرة • فاذا كان بعض اليهود فى فلسطين قد قاوموا الصبغة الهللينية بعنف وقاموا فى القرن الثـانى قبل الميـلاد بالثورة المكابية المتعصبة التى أنشـأت دولة يهودية ضـد ــ هيللينية ، فان الـكثيرين منهـم انتشروا انتشـارا واسـعا بعيـد المدى فى كل العـالم الهللينستى والبيزنطى •

ففى مصر قدر أن ثلث سكان الاسـكندرية البطلمية كان من اليهود ، كما يقال أنهم قاموا فيها بثورة قتلوا فيها ٢٢٠ ألفـا من السكان الأصليين (؟) • وعدا مصر ، فقـد وجد اليهود فى سوريا وآسيا الصغرى من قبل بدرجة أو بأخرى • وعدا هذا وذلك ، كان ثمة مركزان رئيسـيان لتركز اليهود : البلقان ، وسواحل البحر الأسود الشمالية، وكل يسبق العصر المسيحى بوقت طويل • وربما أرسل يهود البلقان منذ ذلك الحين عناصر منهم الى جنوب الروسيا خاصة كييف حيث كانت المنطقة خاضعة بشدة للمؤثرات البيزنطيـة • أما مركز ساحل البحر الأسـود فكان قطبه القرم حيث ذهب كثير من اليهود مع الاغريق بعد الاسكندر•

وقد أفلت هؤلاء اليهود من طرقات وموجات القوط والهون والتتار التى اجتاحت جنوب الروسيا •

غير أن للتتار هنا دورا هاما في التاريخ اليهودى . فقد قامت منهم دولة فى القرن السابع الميلادى هى دولة الخزر التترية التى تحولت بالجملة تماما فى رواية أخرى ، الى اليهودية فى القرن الثامن أى أيام شارلمان ، بينما - بالمقابل - تحول اليهود المهاجرون الى لغة الخزر التركية المسماة بالجاجتاى Jagatai وبهذا أصبح فى المنطقة يهود أصليون مهاجرون ويهود متجولون من السكان المحليين .

وقد كان للخزر مركزان ، واحد على سواحل بحر قزوين (بحر الخزر عند العرب المعاصرين) عند مصب الفولجا ، والثانى فى القرم • وقد ألغى المركز القزينى فى القرن العاشر الميلادى ، ولكن المركز القومى ظل حتى القرن الحادى عشر الى أن تحطم على يد دولة كييف السلافية الجديدة التى تمثل طلائع الدولة الروسية الحديثة • وعندها انتشر كثير من الجزر من يهود ومتهودين فى أجزاء كثيرة من جنوب الروسيا ، بالاضافة الى ما عسى أن يكون دخلها من قبل من يهود البلقان المهاجرين حيث يمكن أن نتتبع ظهورهم - على الطريق - فى روثينيا فى القرنين ١٠-١١ ، وفى بولنده فى القرنين ١٢- ١٤ • وفى القرن الثانى عشر (عام ١١١٠ بالتحديد) منعت الروسيا نهائيا دخول أى يهود جدد بها وحددت للموجود منهم مناطق معينة لايقيمون خارجها ، وهى التى ستؤلف النطاق الذى سيعرف تاريخيا « بحظيرة اليهود Jewish Pale » •

الشتات الرومانى والوسيط

يبقى لنا الآن الشتات الثالث والأخير فى تاريخ اليهود القديم • انه الشتات الرومانى الذى أخذهم بعيدا الى العالم الرومانى أى الى الغرب الأقصى بالنسبة الى الموطن الأصلى فلسطين ، وذلك فى حركة مع عقارب الساعة ستستمر عبر العصور الوسطى حتى العصور الحديثة • وقد بدأ هذا الشتات فى الواقع مع الثورة المكابية ، لكنه اكتمل مع الفتح الرومانى لفلسطين الذى يكاد يتعاصر بدقة مع بداية العصر المسيحى •

فلقد تواترت ثورات اليهود ـ الذين لم يعودوا يزيدون على أقلية من سكان فلسطين ـ على الحكم الرومانى الذى رد بتخريب أورشليم والهيكل وبابادة اليهود فى مذبحة سنة ٧٠ ميلادية الفاصلة (تيتوس) التى صفت أغلبهم محليا وفر منها اقلهم الى مصر وسوريا • غير أن بقايا اليهود عادوا الى الثورة فى ١٣٥ ميلادية حيث قوبلوا بمذبحة نهائية (هادريان) ختمت الى الأبد على مصير اليهود فى فلسطين كدولة وكقومية • فعدا تدمير أورشليم والهيكل مرة أخرى، صفيت بقايا اليهود بالابادة والهجرة •

فعن الأولى يقول جوزيفوس المؤرخ Josephus ان ١٫٣٥٠٫٠٠٠ قتلوا فى المعارك التى يعددها ، كما يقال ان ٩٠٠٫٠٠٠ آخرين أسروا أو بيعوا كرقيق ، كما مات

مئات من الآلاف غيرهم من المجاعات والأوبئة والمذابح • ويعلق هنتنجتون ـ وهو جغرافى يهودى لا يخفى تعصبه ـ بأن هذه أرقام مبالغ فيها بلا شك، ويمكننا نحن أن ننبذها ونعدها خرافية تماما لأن الأدلة التاريخية واشارات التوراة نفسها كما رأينا تضع كل تعداد اليهود فى حدود تقصر دون ذلك كثيرا جدا ولا تتجاوز ثلاثة أرباع المليون كحد أعلى • ومن الناحية الأخرى فان البعض يقدر أن عدد من أبيد من اليهود فى هذه الثورة لا يقل عن ٦٠٠ ألف • فاذا صح هذا الرقم ، ولعله أدنى الى العقل ، فذاك انقراض جنسى حقيقى لم يكد يترك منهم شيئا •

وحتى هذا الذى تبقى تكفلت الهجرة القهرية بتصفيته • فقد حرم الرومان على اليهود دخول القدس نهائيا ، وطردوهم من فلسطين الى كل أجزاء الامبراطورية، وكان هذا هو التاريخ الذى انتهت فيه والى الأبد علاقة اليهود بفلسطين سياسيا وسكانيا • انه الخروج الاخير • كذلك فقد قتل أو طرد كل اليهود فى قبرص • وحتى ندرك مدى ضآلة ما تبقى من اليهود بعد هذه المذابح والمطاردات، يكفى أن نذكر أن عدد يهود الخروج الأخير هذا يقدر بنحو ٤٠ ألفا فقط ! وهو رقم لا بد أن نتذكره دائما لما سيكون له من دلالات جنسية وتاريخية وسياسية عميقة المغزى •

أما ما تبقى بعد هذا وذاك من يهود بفلسطين فشراذم ضئيلة ازدادت تناقصا فيما بعد بتحول بعض أفرادها الى المسيحية • ولعل أهم تلك البقايا السامريون الذين تحولوا

الى قوقعة قزمية مغلقة فى نابلس (Schechem القديمة) حتى أنها لا تزيد اليوم عن مائة أو مائتين! وفى بداية القرن التاسع عشر لم يكن عدد اليهود فى فلسطين كلها ليزيد عن ١٠ آلاف نسمة ٠٠

والملاحظ أن تحولا جذريا طرأ على اليهود بعد هذه الابادة الشاملة والتشريد ٠ فتاريخهم قبل عصر التوراة وبعده تاريخ دموى حربى كله الغزو والعدوان ، وتغلب عليهم فيه صفة الشراسة والعنف ٠ أما بعد مجازر الأشوريين والبابليين ثم الرومان فقد تحول اليهودى فجأة الى شخصية مستضعفة خانعة تحقق أغراضها بالوسائل الناعمة والملتوية وبالتزلف والمكر والخديعة ٠ ويرجع هنتنجتون هذا التحول فى الشخصية الجماعية الى عملية الانتخابات التى فرضتها تلك المجازر حيث بادت فيها العناصر المناضلة المقاومة ولم يبق الا عناصر الجبن والمسكنة والخبث ٠٠٠ الخ ٠ ومنها ومن حينها أخذ اليهود طابعهم الذى عرفوا به فى كل العالم حتى اليوم ٠

على أن يهود الشتات الرومانى لم يأتوا من طريدى فلسطين وحدها وانما من كل مستعمراتهم السابقة القائمة فى العالم الهللنستى ٠ فتبعوا الرومان الى ايطاليا واسبانيا وفرنسا وألمانيا حتى الراين ، وكان طريق الرون ـ الراين ـ فرانكفورت ، وهو طريق التجارة وشريانها التقليدى ، خطا محوريا فى دخولهم العالم الرومانى ٠ ومنذ القرن الثالث الميلادى على الأقل كانوا قد وصلوا الى الراين، حيث تحولت فرانكونيا بالذات الى قاعدة رئيسية ونواة لهم

وكادت عاصمتها فرانكفورت أن تكون عاصمة يهود الشتات الجديد • ومنذ ذلك الوقت نشأت علاقة تاريخية وثيقة بين مدينة فرانكفورت واليهود ستظل عبر القرون حتى يومنا هذا •

ويقدر البعض عدد اليهود في الامبراطورية الرومانية في القرن الخامس الميلادى بما يتراوح بين ٤ ، ٧ ملايين أى نحو ٧٪ من مجموع السكان . وهذا الرقم ـ أيا كان نصيبه من الدقة أو الصحة ـ ينبغى ان نذكره جيدا وان نقرنه في الذاكرة بعدد بقايا يهود فلسطين عند الخروج الاخير والبالغ ٤٠ الفا ، لان معناه ان اليهود في الشتات ضاعفوا عددهم بين ١٠٠ ، ١٨٠ مرة في أقل من ٥٠٠ سنة (!) ، وهو معدل فلكى لايمكن الا ان يلقى ضوءا حاسما على طريقة نموهم ، ان تزايدا طبيعيا او تزايدا بالتبشير والتحول .

بيد أن العصور الوسطى لم تلبث أن أتت بحروبها الصليبية التى أشعلت نار الاضطهاد الدينى ضد اليهود فى جميع أنحاء أوربا مثلما أثارتها ضد العرب خارجها وعلى أطرافها ومشارفها • هنالك بدأت عمليات الطرد بالجملة والابادة التى ستؤدى فى النهاية الى تغيير جذرى فى توزيع اليهود فى أوربا • ففى أواخر القرن الرابع عشر (عام ١٣٩٤) اختفى يهود فرنسا تماما بعد أن طردوا بالجملة منها وتشتتوا فى الدول المجاورة • أما يهود ايطاليا فظلوا متقوقعين بها حيث يتصل تاريخهم بلا انقطاع وحيث تلقوا ـ فضلا عن ذلك ـ هجرات من يهود بلاد أخرى فيما بعد •

أما يهود ألمانيا واسبانيا فسوف يكون لهم الدور الأكبر فى قصة اليهود فى العصور الحديثة • فهؤلاء هم الذين تعرضوا لأشد أخطار الابادة والطرد ، ومنهم ومن

نسلهم سيستمد التقسيم الثنائى الرئيسى الذى يفرق بين يهود شمال أوربا من ناحية جنوب أوربا وحوض البحر المتوســـــط من ناحية أخرى ، أعنى ثنائية الأشكنــــاز والســـفاردى عـلى الترتيب Sephardim Ashkenazim والاشكنازيم والســفارديم كلمتــان قديمتــان فى التوراة استعارتهما التقاليد اليهودية فى العصور الوسطى لتميز بين يهود ألمانيا ويهود أسبانيا على الترتيب ، اعتقادا منهم بأن يهود ألمانيا ينحدرون من نســل قبيلة يهودا ، ويهود اسبانيا من نسل قبيــلة بنيامين • والسفارديم يعدون أو يدعون أنفسهم «ارستقراطية» اليهود على الأساس الدينى، غير انه قدر للأشكناز أن يؤلفوا الأغلبية الساحقة عدديا ـ ٨٠ الى ٩٠٪ فيمــا يقدر ـ والطبقــة المســيطرة المتفوقة حضاريا الى حد يحتقرون معه السفارديم احتقارا لا يحفلون باخفائه •

فاذا عدنا الى الشتات وبدأنا بالأشكناز ، وجدنا أن أول اضطهاد يتعرض له يهود الراين بألمانيا يبدأ مع الحملة الصليبية فى القرن الحــادى عشر (عام ١٠٩٦) ، ولو أنهم كانوا قد بدأوا يتسربون الى العالم السلافى فى بوهيميا وبولنده قبل ذلك بقرنين أو أكثر • هنالك بدأت الهجرة الهاربة التى تسارعت خطاها مع الحملات التالية والتى اتجهت أساســا نحو الشرق • ونحــو الشرق اتجهت لأن ملوك بولنــده ، الذين كانوا يعملون على زيادة ســكان مدنهم ، رحبوا بكل هجرة ، فاغتنم اليهود الفرصة ، وكان خروج

بالجملة وصل الى حد أثار فى النهاية مخاوف بولنده • غير أن انتقال جسم الأشكناز كان قد تم نهائيا ، وتحولت نواة فرانكونيا القـديمة الى مجرد بقـايا أو الى شبح يذكر بالتوزيعات التاريخية الأولى ، وفى نهاية القرن السادس عشر لم يكن ثمة سوى ثلاث مدن ألمـانية مفتوحة لليهود هى فرانكفورت وفرمس Worms وفيرت Fürth

أما فى بولنده وجنوب الروسيا فقـد التقى اليهود الألمانمع بقايا اليهود البيزنطيين ويهود الخزر الذين كانوا بدورهم قد بدأوا يطاردون نحـو الشمال والغرب على يد الاضـطهادات السياسية الشـهيرة المعروفة فى الروسيا بالبوجروم Pogroms ، والتى اتسع نطاقها ليشمل يهود بولندة بعد تقسيم هذه الدولة وانتقال الشطر الأكبر منها الى الروسيا • وتتمثل آثار هذا اللقاء الآن من بين ما تتمثل فى يهود القرم الذين ينقسمون الى يهود قرائين ، والى يهود القرمشاك Krimshaks الربانيين ، كما تتمثل فىيهود ليتوانيا القرائين •

والمهم أن ذلك اللقاء تحول ـ ولم يكن له بد من أن يتحولـ ليس فقط الى شملية تراكمعددى وتكثيف وتكتيل لليهودية ستعطينا واحدة من كبريات تجمعاتها فى العالم حتى اليوم ، وانمـا تحولت كذلك الى عمليـة خلط ومزج وصهرت سيسود فيها يهود الغرب الألمان عدديا وحضاريا على السواء • ومن أوضح وأبسـط مظاهر هـذه السيادة اللغة الجـديدة التى نشأت عن التفـاعل وهى اليديشـية

Yeddish المستمدة من اللهجة الألمانية العليا Hoch Deutsch التى حملها معهم يهود الغرب ــ وكلمة يديش نفسها تحريف واضح لـكلمة يهودى بالألمانية ــ والتى ستصبح أهم لسان بين ألسنة اليهود التى لا حصر لها .

أما عن السفارديم فتبدأ قصتهم مع طرد اليهود ــ جنبا الى جنب مع العرب ــ من اسبانيا فى حروب « الاسترداد Reconquista » عـــام ١٤٩٢ بعـــد عصر من الاضطهاد والابادة على يد محاكم التفتيش . والمقـــدر أن عدد يهود اسبانيا العربيـــة وصل فى حين ما الى حد المليون نسمة . وقد انتشر هؤلاء اليهود فى فترات مختلفة الى هـولنـدا وانجلترا ، والى ايطاليا وفرنسا ، ولـكن خاصة الى شمال افريقيـا ابتـــداء من مراكش حتى تونس ، وبالأخص الى الامبراطورية العثمـــانية . ففى الامبراطورية العثمـانية الحديثة التوسع وجدت الأغلبية الساحقة من السفارديم موطنها الجديد ، ابتداء من البلقان والدانوب حتى الأناضول والشرق الأوسط حيث كانت سالونيك والقسطنطينية من أهم بؤرات تجمعهم ، وحيث التقوا باليهود القـــدامى من بيزنطيين وسابقين للعصر البابلى سواء غرباء مهاجرين أو محليين متحولين .

وفى كثير من هذه المهـاجر الجديدة أصبح الساردیم ــ كالأشكنازيم فى مهجرهم الجديد ــ هم السائدين عدديا بين الجاليات اليهودية ، بل كادوا أن يكونوا العنصر الوحيد فى يهود مدن البلقان . وفى كل هذا المجال الجغرافى أطلق عليهم اسم الأسبانيـــولى Spagnuoli ، Spaniol ؛ كمـا

حملوا اليه ـ كالأشكناز ـ لغتهم الاسبانية المحرفة المعروفة باسم اللادينو Ladino ، وظلوا حتى اليوم يلبسون لباسا خاصا ويبدون خصائص حضارية وثقافية تذكر بقوة بفترة اقامتهم الاسبانية ·

الشتات الحديث

تلك قصة « اليهودى التائه أو المتجـول » من أول شتات قبل الميلاد الى آخر شتات فى مطالع العصور الحديثة· بيد أن هناك حلقة رابعة تتمم السلسلة ، وتتركز فى القرن أو القرنين الأخيرين ، ولا بأس أن نشير هنا بايجـــاز الى خطوطها العريضة ولعلها خطان رئيسيان أو ثلاثة · وفيها جميعا سيكون الدور الأكبر بطبيعة الحال للأشكنازيم بحكم سيادتهم العـددية ، واذا كان السفارديم قد ســاهموا فى الشتات الحديث فبقدر محدود ·

والانتشار الأول والأهم فى الفترة المعـاصرة هو بلا شك انتشار العالم الجديد بمعناه الواسع والولايات المتحدة بصفة خاصة · ويمكن أن نميز فى هجرة اليهود الى أمريكا الشمالية مراحل ثلاثا ، لكل منها قطبها الجغرافى ، وثلاثتها ترسم معا حركة واضحة من الجنوب الغربى الى الشمال الشرقى · فالأولى تتفق مع ما يعرف فى التاريخ الأمريكى « بالعصر الاستعمارى » فى القرنين السادس عشر والسابع عشر · ومصدرها الرئيسى اسبانيا والبرتغـال ، وقوامها السفارديم أساسا ، وطلائعها الأولى مبكرة حقا تتعاصر مع

الآباء المهاجرين والبيورتان ، ولكنها في الجملةقوة محدودة عدديا ٠

أما المرحلة الثانية ففي أواسط القرن التاسع عشر تقع ، وترتبط أســاسا بأواسط أوربا : المانيــا بالدرجة الأولى ثم فرنسا ٠ ذلك عصر الثورات والاضـــطرابات السياسية التاريخية في القارة ، فكان خروج يهودي نشيط حمل الى الولايات المتحـدة نحو ربع المليون : فالمقــدر أن بورتي ١٨٣٠ ، ١٨٤٨ قذفتا اليها بنحو ٢٣٠ ألف يهودي ٠

أما المرحلة الثالثة ففترة ممدودة حول دورة القرن من ١٨٨٥ الى ١٩١٤ ، وكان قطبهــا المركزي في الارســال الروسيا القيصرية يحف به هالة تشــمل النمسا ـ المجر ورومانيا ٠ وقد دخــل الولايات المتحـدة من اليهــود بين ١٨٨١ ، ١٩١٠ زهاء ١٫٥٦٢٫٠٠٠ ، منهم ١٫١١٩٫٠٠٠ من الروســيا ، ٢٨١ الفا من النمسا ـ المجر، ٦٧ ألفا من رومانيا ٠ وفيما بين ١٩٠٠،١٩١٣ فقط هاجر من الروسيا ٩٦٤ ألف يهودي الى الولايات المتحدة ، ٦٠ ألفا الى كندا ٠

ذلك اذن تيار كثيف عرم من وســط وشرق أوربا انفجر مع استمرار الاضطهاد والغربة من جهــة ومع فتح باب الهجرة الى الولايات من جهة أخرى ، انفجر ليستقر في أمريكا الشمالية منذ العشرينات من القرن الحالي وليصبح فيما بعــد أضخم تجمع لليهــود على وجه الأرض على وجه الاطلاق ٠ كذلك انطلقت الهجرة الى أمريكا اللاتينية بأغلب وحداتها السياسية خاصة البرازيل والأرجنتين ٠

أما فى العالم القديم فقد كانت كثافة وقوة الهجرة أقل بكثير ، وكانت استراليا وجنوب افريقيا هما القطبين الأساسيين فيها. غير أننا لاينبغى أن ننسى المجال السوفيتى حيث هجر بعض من يهود الروسيا الى الشرق الأقصى السوفيتى وأقيمت لهم جمهورية خاصة هى جمهورية بيروبيدجان Birobidjan اليهودية فى حوض الآمور .

ومحصلة كل هذه الهجرات أن الانتشار الحديث توزع فى كل الاتجاهات ، أى على اطار دائرى حول النواة التاريخية القديمة ، ولكن مركز ثقله المطلق كان دائما صوب الغرب الأقصى استمرارا لاتجاه المحور الأسى فى كل حركة الشتات اليهودى عبر التاريخ .

بعد هذا تمثل الفترة النازية فى ألمانيا الهتلرية دورة شتات جديدة . فقد أدى الاضطهاد النازى لليهود ، الذى وصل الى قمته فى عمليات الابادة الجماعية التى يقدر البعض جملة حصادها ان خطأ أو صوابا وان حقا أو مبالغة بنحو خمسة ملايين يهودى ، أدى هذا الى حركة خروج أو بالأحرى هروب من الرايخ وأوربا الوسطى بعامة . واذا كانت هذه الحركة قد جمعت كثيرا من يهود أوربا فى فلسطين أثناء الحرب العالمية الثانية ، فان الجزء الأكبر منها اتجه الى العالم الجديد خاصة الولايات المتحدة . فكانت عملية تفريغ ليهود وسط أوربا وتكثيف ليهود الولايات المتحدة ، كما كانت بداية عملية أو جريمة زرع اسرائيل.

وهذه الجريمة الاخيرة نفسها هى دورة جديدة فى ـ ماذا نقول؟ـ شتات اليهود ، غير انها اختزلت وكثفت كل تاريخ اليهود فى الاضطهاد

وعكسته على عرب فلسطين الشرعيين . انها الدورة الصهيونية التى قامت بعملية «اسقاط» على العرب لكل تجربة يهود الشتات من ابادة وطرد وخروج ابتداء من الاسر البابلى حتى ضد السامية النازية .ومع اغتصاب فلسطين ، الذى تسميه الصهيونية بالكذب وللسخرية المريرة «حرب الاستقلال» « والعودة الى أرض الميعاد » (!) ، تشعبت تيارات وموجات الهجرة نحو بؤرة واحدة وجديدة .

من بين هـذه التيارات كان التيار الاوربى هو السائد فى بداية صنع اسرائيل ، ثم تحول الى آسـيا ، وبعدها الى افريقيـا على الترتيب . ولما كان هذان المصدران الاخيران يقع اغلبهما فى العـالم العربى ، بينما طرد عرب فلسطين الى البلاد العربية المجاورة ، فقد وصـل السفه الاسرائيلى الصـهيونى الى حد الزعم الفاجر بان العمليـة كلها ليست الا عملية « تبادل سـكان » ! غير أن المستقبل القريب جدير بان يثبت أن اسرائيل لن تكون الا مجرد مرحلة فى رحلة الشـتات التاريخية مجرد جملة اعتراضية فى تاريخ فلسطين ، وقريب هو لاشك « الخروج » الجديد ...

طوائف ثلاث

ونستطيع الآن بعد أن انتهينا من ديناميكية اليهود عبر التاريخ أن ننظر نظرة عامة الى صورتهم الاستاتيكية الحالية كما تتمثل فى التصنيف الأولى لفئاتهم الطائفية . ولقد رأينا التفرقة بين الاشكناز والسفاردى ، ولكن لابد أن نضيف اليهود الشرقيين Oriental Jews

هؤلاء لايقعون داخل أى من المجموعتين الأوليين ، وانما يمثلون مجموعة قائمة بذاتها استمدت أصولها القـديمة من فلسطين رأسا أو من مراكز يهودية ثانوية . وهـم اذا كانوا ــ نظريا ــ الأقرب الى الأصول الفلسطينية ،

فانهم الأقل عددا والأدنى مرتبة فى الهيراركية اليهودية، فكل من الأشكناز والسفارديم ينظر اليهم نظرة احتقار وازدراء بلا مواربة ·

أما توزيعا ، فان الأشكناز يشملون اليوم يهود غرب ووسط وشرق أوربا ، بالاضافة الى خلاياهم الجديدة التى انشطرت فى العالم الجديد بقارتيه ، ثم جنوب افريقيا واستراليا · ويشمل السفاردى يهود البلقان والشرق الأدنى ، كما يشمل مستعمرات وجاليات مبعثرة على شواطىء البحر المتوسط الشمالية والجنوبية ، بالاضافة أخيرا الى امتداداتهم الحديثة والمحدودة فى العالم الجديد شماله والجنوب · أما اليهود الشرقيون فاليهم تنتمى مستعمرات فى شمال افريقيا وفلسطين ، ثم مستعمراتهم فى العراق واليمن ، ثم القوقاز وايران والتركستان الروسية ، وكذلك الهند والصين ·

وبعض هذه التوزيعات يستحق شيئا من التفصيل· ففى القوقاز تنتشر شظايا اليهود الشرقيين تحت أسماء مختلفة : فثمة يهود الجبال فى داغستان من بقايا الخزر القدامى والذين يعيشون فى ثنايا الشعب اللزجى Lesghians ويتكلمون لهجة فارسية ، وثمة يهود جورجيا فى تفليس خاصة ، ثم يتمم الصورة الفسيفسائية يهود الشماخة Shemakha فى أزربيجان · أما فى فلسطين ، فاذا كان اليهود المحليون قبل الاغتصاب هم من الشرقيين ، فقد جمعت الصهيونية بالهجرة بين المجموعات الرئيسية الثلاث بنسبة النصف من الأشكناز والنصف من السفارديم والشرقيين ·

توزيع اليهود في العالم

اكتملت لنا الآن فيما نأمل صـــورة هيكل التاريخ اليهودى على نحو ما ، وإن لنا أن نضع التوزيع الراهن لليهـــودية العــالمية Judenthum تحت المهجــر ، وذلك قبل أن نتقدم لندرس انثروبولوجية اليهود جنسيا، فان لتوزيع اليهود فى ذاته ـ واليهود بالذات ـ قيمـة ودلالة انثروبولوجية حاسمة كما ســنرى • ولعـل من الواضح الآن أن الذبذبة العنيفة ما بين نمو وتناقص هى ملمح أساسى جدا فى كيان اليهودية العالمية ، شأنها تماما شأن السيولة الجغرافية النادرة المثال فى توزيعها المكانى •

انها اذن ذبذبة مزدوجة فى الزمان والمكان ، بل لعلهما هنا جانبان لشىء واحد • الا أن الذبذبة العنيفة فى الزمان تجعل نمو اليهود فى نهاية المطاف وعلى المـدى الطويل أقرب الى الجمود والتوقف النسبى • فكلما نموا بالزيادة الطبيعية سرعان ماتحصدهم الاضطهادات فيعودون الى نقطة البدء من جديد • أما الذبذبة فى المكان فتنتهى الى تغيير جذرى ومثير فى أوطانهم الاقليمية بصورة انقلابية تماما •

ونحن نستطيع هنا أن نعرض « لقطتين » لتوزيع اليهود بين تاريخين متباعدين بما فيه الكفاية لندرك هذه الذبذبات الانقلابية : الأولى فى العقد أو العقدين الأخيرين من القرن الماضى ، والثانية فى يومنا هذا • فحوالى ١٨٨٠

وبعدها قدر عدد يهود العالم بنحو ٥ر٦ مليون نسمة ، منهم ٥ره مليون فى أوربا وحدها بنسبة ٥ر٨٤٪ ، ٤٢٠ ألفا في افريقيا بنسبة ٥ر٦٪ ، ٢٥٠ ألفا فى آسيا بنسبة ٤٪ ، والبقية فى أمريكا واستراليا ٠

أما حوالى نهاية القرن أو دورته فقد قدر عدد يهود العالم بنحو ٨ الى ٩ ملايين ٠ من هؤلاء كان ٦ ــ ٧ ملايين يتوزعون فى أوربا وحدها أى بنسبة ٨٠٪ ٠ وهناك فى أوربا ، حيث التوزيع أو الكثافة أبعد شيء عن التجانس ، كان مركز الثقل يتحدد فى دائرتين يفصل بينهما برزخ أو انخفاض عميق : دائرة فى الشرق وأخرى فى الغرب ٠ فالأولى دائرة الأساس ، وهى بالفعل دائرية شكلا ، تغطى جنوب غرب الروسيا وجنوب دويلات البلطيق وكل بولندة (والأخيرتان كانتا تابعتين للروسيا سياسيا) ، ثم أقصى شرق المانيا حيث اشتد طفح يهود بولندة بدرجة خطيرة أثارت صيحة ضد السامية ، ثم أخيرا امبراطورية النمسا ــ المجر شمال الدانوب ٠ وحدود الدائرة شرقا فى الروسيا قاطعة حادة بحكم القانون الذى قصر اقامة اليهود على مناطق معينة ، وترسم قوسا من القوقاز الى البلطيق ٠

أما فى مجموعها فتزن الدائرة أكثر من ٦ ملايين يهودى : انها ببساطة قطب اليهودية فى العالم ٠ وثقلها الطاغى هذا وحده يجعلنا نفترض لها أكثر من مصدر تاريخى ، فليس من المعقول أن نفترض أنها استمدت

كل جسمها من الدائرة الصغرى وحدها الى الغرب ، بل لابد كذلك أن نفترض المصدر الشرقى عن طريق القوقاز ، الى جانب التحول الدينى المحلى • من هذه الدائرة يحتل جنوب غرب الروسيا القلب المطلق ، فكان فى الروسيا نحو ٤ ـ ٥ ملايين أى نصف يهود العالم • ولكننا حين نقول الروسيا فانما نقصد معها الجزء الاكبر من بولندة الذى ضم اليها فى التقسيم السياسى (Polognerusse) والذى كان هو النواة النووية الحفة فى كل دائرة اليهود الشرقية • بل يذكر البعض أن يهود بولندة وحدها كانوا يؤلفون نصف يهود العالم • أما بقية التوزيع فكانت النمسا ـ المجر تلى بنحو مليونين ، ثم رومانيا بحوالى ٦٠٠ ـ ٧٠٠ ألف •

أما عن الدائرة الثانية فى الغرب فهى أصغر بكثير ، تنتشر فى حوض الراين بعامة وفرانكونيا والالزاس واللورين وهولندا بخاصة ، وتستقطب جميعا حول مدينة فرانكفورت • فكان بكل ألمانيا نحو ٦٠٠ ـ ٧٠٠ ألف ، الجزء الأكبر منهم فى حدود هذه الدائرة ، وكان بهولندا ١٠٠ ألف ، وبفرنسا ٨٠ ألفا • أما خارج هاتين الدائرتين فتقل أعداد وكثافات اليهود كثيرا أو كثيرا جدا : بريطانيا ١٠٠ ألف أغلبهم فى لندن ، ايطاليا ٥٠ ألفا ، أما اسكندناوة فكان اليهود ممنوعين حتى منتصف القرن تقريبا ، وفى اسبانيا لم يكن ثمة يهودى على الاطلاق منذ « الاسترداد » • أما خارج أوربا فكان المقدر أن يهود الولايات المتحدة لايزيدون

حينذاك ـ رغم بداية تدفق الهجرة من الروسيا ـ لايزيدون عن نصف المليون مبعثرين فى مدنها الكبرى ، منهم ربع مليون فى نيويورك ٠

وفى ١٩٠٥ قدر عدد يهود العالم بأكثر من ١١ مليونا ، نصفهم فى الروسيا ورومانيا ، وثلثهم فى المانيا والنمسا ، والسدس فى بقية العالم ٠ ولكن أثر الهجـرة الى العالم الجديد كان قد بدأ ، فان أغلب هذا السـدس الأخير أو نحو ١٣٪ من مجموع اليهود كان يحتشد فى الولايات المتحدة وحدها ٠

ماذا تعنى هذه الارقام وتلك التوزيعات ؟ مهما يكن من امر ، وبغض النظر عن التطورات الطفيفة فى التوزيع بين تلك التـواريخ المتقاربة ، فان ملامح الصورة العامة واضحة ٠ فاوربا هى عمليا الوطن المطلق لليهودية العالمية ، وما يوجد خارجها ليس بالمقارنة الا شظايا ٠ وعلى مستوى النظرة الكلية يمكن ان نتصور ثلاث دوائر هى اقطاب التوزيع حتى نهاية القرن الماضى ، تقع على عروض متقاربة ولكنها تتضاءل بسرعة وبشدة اقطارا واحجاما من الشرق الى الغرب : دائرة شرق اوربا ومركزها بولنـدة الروسية ، ودائرة غـرب اوربا ومركـزها الراين وفرانكفورت ، واخيرا دائرة الولايات المتحدة ومركزها نيويورك ٠

لننظر الآن الى توزيع اليهود المعاصر لنرى الانقلاب المطلق ٠ فقد لنتذكر أولا أن الصورة فى أوربا قبل النازية والحرب الثانية كانت تختلف كثيرا فى أساسـياتها عن صورة نهاية القرن ، وفى نفس الوقت كانت تتشـابه ٠ تتشابه من حيث انها تمثل تكثيفا تراكميا لتلك الصورة بحكم التزايد الطبيعى ، وتختلف فى أنها بدأت تعكس نتائج وآثار الهجرة الى العالم الجديد بصورة حاسـمة ٠

انها باختصار تمثل مرحلة الانتقال من نمط منتصــف القرن التاسع عشر الى نمط منتصف القرن العشرين ·

ففى عام ١٩٣٩ قدر يهود العالم بنحو ١٥ مليونا · (ولعل هذه أعلى قمة سجلتها ديموغرافية اليهــود فى تاريخهم ، فبعدها جاءت ابادة النازية التى ــ وان رفضنا مبالغات وتهويل الدعايات الصهيونية ــ حصدت منهم لاشك عددا كبيرا) · أما عن التوزيع ، فالمقدر أنه كان بأوروبا ١٠ ملايين أى الثلثان ، منهم ٣ ملايين فى الاتحاد السوفيتى ، ٣ ملايين في دول شرق أوروبا الجديدة وهى دويلات البلطيق وبولندة ، أما أمريكا فكان نصيبها ٤ر٥ من المليون ، وآسيا ثلاثة أرباع المليون ·

أما الآن ــ ١٩٦٦ ــ وبعد أن عاد اليهود الى النمو الطبيعى منذ نهاية الحرب ، فان عددهم يقدر رسميا بنحو ١٣ر٤ من المليون · والرقم ــ قبل أن ندخــل الى تحليل جزئياته ــ جدير بوقفة تأمل ، فان له أكثر من مغــزى · فأولا ، اذا تذكرنا عدد اليهود فى القرن الخامس الميلادى (٤ ــ ٧ ملايين) فان معناه أن اليهود فى ١٥٠٠ ســنة لم يتضاعفوا الا مرة واحدة ، بينما كانوا قد ضاعفوا أنفسهم في القرون الخمسة السابقة بمعدلات خيالية ! ولا تفسير لهذا الا ميكانيكية النمو والتناقص بالتناوب ، أو ميكانيكية شد الحبل المزمنة بين قوى النمو الطبيعى وقوى الاضطهاد والابادة · ثانيا ، وفى الاطار الكوكبى ، يبدو اليهــود على الفور شيئا ضئيلا بالغا حد القزمية في ديموغــرافية

العالم : ٤ر١٣ من المليون من أكثر من ٣٣٠٠ مليون ، أو ٣ ــ ٤ فى الألف من سكان العالم ، وتبدو اليهودية بسهولة قوقعة دينية حفرية ضامرة ٠

والواقـــع أن اليهـودية ، وحدها من بين الأديان السماوية ، هى التى تشترك مع كثير من الديانات غـــير السماوية ، فى أنها ديانة « مقفلة أو مغلقة » ، أى تحجم عن التبشير وتجتر نفســـها أبدا ٠ واذا كـان البعض يصنف الديانات المقفلة هذه الى نوعين : ديانات«جغرافية» وديانات « عنصرية » ــ يعنى على الترتيب ديانات محليـة التوزيع قاصرة على وطن أو بيئة محدودة ، أو مـرتبطة بقوم أو عنصر بعينه ــ فان اليهود يمثلون شذوذا يكـاد يصل الى حد المتناقضة الفذة ٠

فهم قد بدأوا ديانة جغرافية وعنصرية معا ، وبصرامة قاطعة ذلك ، ولكن منذ الشتات انتشروا أيدى سبأ فى أرجاء العالم لتصبح اليهودية عالمية أو شبه عالمية بمجرد توزيعها ، وان كانت أبعد شىء عن العالمية بحجمها القزمى الضئيل ٠ كذلك فقد تخلط اليهود ــ كما ســـنرى ــ وداخلهم بالتحول والتزاوج دماء عناصر شـــتى لا حصر لها ، فما عادوا عنصرا بعينه متجســـدا على الديانة ، ولا الديانة عادت مرادفة لعنصر جنسى واحـــد ٠ ومع ذلك فاليهود واليهودية ، بالسياسة والمذهبية ، تمثل عنصرية عاتية غاشمة تلخصها فى كلمة واحدة الصهيونية المعاصرة٠

والآن ، كيف يبدو نمط توزيع هذه الأقلية الدينية

العالمية ؟ الجدول الآتي ، الذى يدور حول أواخر الخمسينات وكما أورده كتــاب « اليهودية العــالمية World Jewry لا يعطى الا ١٢ مليونا كمجموع كلى ، ولذا فهو يقــدم صورة رقمية قد تختلف قليلا عن صورة اليوم ، ولكنه يظل يعطى نسبا صحيحة بوجه عام ٠

القارة	عدد اليهود	٪
أوربا (بكل الاتحاد السوفيتى)	٣ر٤٠٠ر٠٠٠	٢٨ر٨
أمريكا الشمالية	٥ر٤٣٣ر٠٠٠	٤٥ر١
أمريكا الجنوبية	٦٣٣ر٠٠٠	٥ر٣
آسيا	١ر٨٥٥ر٠٠٠	١٥ر٤
افريقيا	٥٨٥ر٠٠٠	٤ر٩
استراليا ونيوزيلنده	٦١ر٠٠٠	٠ر٥

والحقيقة الكبرى التى يكاد يضج بها الجدول هى أن نصف يهود العالم جميعا يعيشون فى العالم الجديد ، السواد الأعظم منهم فى أمريكا الشمالية التى تعنى عمليا الولايات المتحدة بالتحديد ٠ هذا بينما لاتضم أوربا ، وهى التى كانت منذ نصف قرن حتى نهاية القرن الماضى تحتكر ٨٠٪ من يهود العالم ، لاتضم الا ما يزيد عن الربع قليلا ٠ انقلاب كامل ، وانتقال مطلق لمركز الثقل ! وهو انتقال فى نفس الاتجاه وعلى نفس المحور التاريخى لحركة ورحلة اليهودى التائة : الى الغرب دائما ٠

أما آسيا وافريقيا فلا تجمعان معا الا خمس اليهودية،

وهذا أيضا شذوذ طارىء جديد لأن النسبة الكبرى منهم تتشكل من صهيونية اسرائيل الدخيلة الغاصبة ، وبغيرها لاتزيد آسيا وافريقيا عن ٧ ـ ٨٪ من يهود العالم ، بل يهوى عدد يهود آسيا ا لى١٣٦ ألفا فقط وتهوى نسبة آسيا الى ٥ر٢٪ لتصبح أقل من افريقيا وأقل القارات جميعا باستثناء استراليا ٠

أما داخل القارات ففى هذا الجدول انعكاس لأهم ملامحها بحسب أرقام « اليهودية العالمية » سابق الذكر ، علما بأن النسب المئوية تشير الى نسبة يهود كل دولة الى سكان تلك الدولة ٠

الدولة	عدد اليهود	٪
كندا	٠٠٠ر٢٣٣	٤ر١
الولايات المتحدة	٠٠٠ر٢٠٠ر٥	١ر٣
الأرجنتين	٠٠٠ر٣٦٠	٨ر١
البرازيل	٠٠٠ر١٢٠	٢ر٠
أوروجواى	٠٠٠ر٥٠	٠ر٢
النمسا	٨٠٠ر١١	٢ر٠
بلجيكا	٠٠٠ر٣٥	٤ر٠
هولندا	٠٠٠ر٢٦	٢ر٠
تشيكوسلوفاكيا	٠٠٠ر٢٠	٢ر٠
بريطانيا	٠٠٠ر٤٥٠	٩ر٠
فرنسا	٠٠٠ر٣٥٠	٨ر٠
بولنده	٠٠٠ر٤٥	٢ر٠

الدولة	عدد اليهود	٪
المانيا	٣٠ر٠٠٠	٠ر٠
المجر	١١٠ر٠٠٠	١ر١
ايطاليا	٣٢ر٠٠٠	٠ر٣
رومانيا	٢٢٥ر٠٠٠	١ر٣
الاتحاد السوفيتي	٢ر٠٠٠ر٠٠٠	٠ر٨
تركيا	٦٠ر٠٠٠	٠ر٢
المغرب	٢٠٠ر٠٠٠	٢ر١
الجزائر	١٣٠ر٠٠٠	١ر٤
تونس	٨٠ر٠٠٠	٢ر١
مصر	٤٠ر٠٠٠	٠ر٢
اثيوبيا	١٢ر٠٠٠	٠ر١
جنوب افريقيا	١١٠ر٠٠٠	٠ر٧
الهند	٢٥ر٤٠٠	٠ر٠
ايران	٨٠ر٠٠٠	٠ر٤
اسرائيل	١ر٧١٩ر٠٠٠	٨٩ر٢
سوريا	٥ر٠٠٠	٠ر١
لبنان	٦ر٠٠٠	٠ر٤
اليمن	٣ر٥٠٠	٠ر١
عدن	٨٠٠	٠ر١
استراليا	٥٧ر٠٠٠	٠ر٦

والجدول حافل بالحقائق المثيرة الجديرة بكل ملاحظة

وتدبر . فاولا ، كما انتقلت الصدارة من أوربا الى أمريكا الشمالية ، انتقلت من الروسيا (الاتحاد السوفيتى) الى الولايات المتحدة التى هى اليوم المعقل الأكبر لليهودية حيث تضم وحدها ٤٤٪ منها . وقد نما عدد اليهود فى الولايات المتحدة من ٤٫٠٨١٫٠٠٠ فى ١٩٢٦ الى ٤٫٤٦١٫٠٠٠ فى ١٩٣٦ ، ثم ظل بعد ذلك يرد لسنوات طوال متتابعة على أنه ٥ ملايين بحسب تقدير الأجهزة اليهودية . وكما يعلق بيرجل Bergel ، فذلك مجرد تقدير تخمينى لاشك ، وأهم من ذلك أنه مبالغ فيه على وجه اليقين ككل أرقام الأقليات . وأيا ما كان ، تظل كتلة الولايات المتحدة هى أضخم حشر يهودى فى العالم .

ثم يأتى الاتحاد السوفيتى كالثانى فى العالم بسدس مجموع اليهود أو حوالى ١٦٪ . وبهذا تكون الولايات والاتحاد هما الدائرتين الكبريين الآن فى محيط اليهودية العالمية اللتين ورثتا دائرتى شرق أوربا والراين فى القرن الماضى ، أو قل ان دائرة الراين الصغرى هاجرت وعبرت المحيط لتصبح هى مركز الثقل الطافى . ويلى الاتحاد اسرائيل الصهيونية فى فلسطيننا المحتلة لتكون الثالثة فى العالم ، وهى لا تضم من يهود العالم الا ١٣٪ .

وماذا كانت هذه هى أرقام أواخر الخمسينات ، فقد نشرت أخيرا أرقام حديثة عن تعداد اليهود فى الدول الثلاث السابقة يمكن على أساسها أن نرى تغيرا ملحوظا فى أوزانهم . فالكتاب السنوى اليهودى الأمريكى يقدر عدد يهود العالم فى أول ١٩٦٦ بنحو ١٣٫٤ من المليون

نسمة ، منهم ٥ ملايين فى الولايات المتحدة أى بنسبة ٣٧٪، ٢٫٤٨٦٫٠٠٠ فى الاتحاد السوفيتى بنسبة ١٨ ٪ ، ٢٫٢٢٩٫٠٠٠ فى اسرائيل بنسبة ١٦٪ . وبمقارنة هذه الأرقام والنسب بأرقام أواخر الخمسينات يرجح لدينا أن بعض التغييرات هى فى الحقيقة مجرد تصحيحات لأرقام تقريبية سابقة . والمهم على اية حال أن نسبة الولايات المتحدة قد انخفضت قليلا ، بينما ارتفعت نسبة الاتحاد السوفيتى ، وارتفعت نسبة اسرائيل — لا شك بالهجرة — أكثر وأكثر .

هذا اذن عن « الثلاثة الكبار » — كما يقال — فى اليهودية العالمية . ولكن ثمة بعدها دول تتدرج من حوالى نصف المليون الى ثلث المليون الى ربع المليون ، هى على الترتيب بريطانيا (½) ثم الأرجنتين وفرنسا (⅓) ثم كندا ورومانيا (¼) . ثم تلى بعد هذا ٥ دول يزيد عدد اليهود فى كل منها عن المائة الف ، هى على الترتيب ، المغرب فالجزائر فالبرازيل فالمجر فجمهورية جنوب افريقيا ، مع ملاحظة أن الهجرة أخيرا من المغرب والجزائر قد هبطت بأعداد اليهود فيهما كثيرا جدا حتى خرجت بهما من هذه المجموعة .

من هذا التصنيف الحجمى لا يمكن الا أن نصل الى نتيجة بالغة الأهمية ان لم تكن ثورية حقا . فاذا نحن اضفنا مجموع الثلاثة الكبار لاتضحت لنا حقيقة بالغة الخطورة وهي آن ٨٫٩ مليون يهودى من ١٣ مليونا أو

نحو ٦٩٪ تحتشد جميعا فى ثلاث فقط من دول العالم كذلك اذا نحن اعتبرنا الدول الثلاث عشرة فئة + ١٠٠ من ٠٠٠ر٤٠٠ر١٣ أى بنسبة ٧١٪ بحسب أرقام ١٩٦٦ . كذلك اذا نحن اعتبرنا الدول الثلاث عشرة فئة + ١٠٠ الف لوجدناها تحتكر وحدها ٠٠٠ر٢٠٧ر١١ يهودى من المجموع العالمى البالغ حينذاك ٠٠٠ر٠٣٥ر١٢ أو زهاء ٩٣٪ . فما معنى هذا ؟

قد يكون اليهودى عالمى التوزيع ، بمعنى أنه لا تكاد تخلو دولة فى العالم منه ، وقد يكون توزيع اليهودية على طرف النقيض من توزيع الاسلام الجغرافى الذى ينفرد من بين الأديان بمحيط مطلق يكاد يكون متصلا بلا انقطاع ، ولكن ليس صحيحا أن « تحت كل حجر فى العالم يهوديا » ... انما الأصح أن نقول ان توزيع اليهود العالمى توزيع رشاش متطاير فى معظمه يتحول أحيانا الى « تراب » رمزى بحت ، بينما أن ٦٩٪ أو ٧١٪ من يهود العالم يتكدسون ككتلة من « الأحجار الضخمة » فى ٣ دول ، ٩٣٪ فى ١٣ دولة . وبينما تتراوح نسب اليهود الى عدد السكان الكلى فى دول الجاليات الكبرى (ماعدا فلسطين المحتلة) بين ٣٪ كما فى الولايات المتحدة وبين ١٪ ، تتأرجح فى بقية دول العالم حوالى ١ر٠ ، ٢ر٠ ، ٣ر٠ ، ٤ر٠٪ فى الأعم الأغلب ، وكثيرا ما تكون أقرب الى الصفر .

أما اذا عدنا الى التوزيعات الاقليمية ، فسنجد

الصورة أوضح ما يكون ، ولكن أيضا أشد ما يكون ثورية ، فى أوربا . فثمة دائرتان أو بالأحرى الآن نواة ضـخمة ونوية ثانوية . النواة فى شرق أوربا (٣ ملايين) : الاتحاد السوفيتى بمليونين وربع المليون ، ثم رومانيا بربع المليون، والمجر بنصف ذلك . ومن الواضح أن هذه النواةتقلص ضامر لنواة القرن الماضى الثقيلة بعد أن خفت فى القلب وقلمت أطرافها فى بولنده وتشيكوسلوفاكيا وشرق ألمانيا والنمســـا بفعل الهجرة والحرب وعمليات التصـــفية النازية . أما النوية (أقل من المليون) ففى بريطانيــا وفرنسا أساسا ، وهى بهذا قد ورثت نوية الراين القديمة التى تبددت الآن تماما واصبحت ألمانيا مثل بولنده من أقل دول أوربا يهودا . وخارج هاتين الدائرتين ينتشر اليهود فى شبه تجـــانس على نحو ما ، ببضـــعة آلاف أو عشرات الآلاف لا أكثر فى بقية واحدات القارة . وبهذا وذاك جميعا نرى أن توزيع اليهود وكثافتهم تقل سريعا فى أوربا شمال الألب من الشرق الى الغرب .

وعلى العكس من هذا انحدارهم gradient على الشاطىء الآخر من البحر المتوسط فى شمال افريقيــا ، فهم يقلون عددا ونســـبة كلمـــا اتجهنا من الغرب الى الشرق ، من المغرب الى الجزائر الى تونس الى مصر . ونطاق يهود افريقيا العربية ، الذى كان يزن قبل الخروج الأخير نحو نصف المليون ، يكاد يكون المجـــال اليهودى الوحيد فى القارة باســـتثناء الطرف الجنوبى الأقصى فى

جمهورية جنوب أفريقيا حيث جذبهم الاستعمار السكنى (١١٠ آلاف) . وتلا المجالين — سيلاحظ — خارج مدارى بوضوح . أما بين المدارين فقليلة جدا هى الوحدات التى تعرف اليهود قدأمى أو جددا ، وقليلة هى جدا أعداد اليهود فيها على أية حال — كاثيوبيا وبعض وحدات الاستعمار الاوربى السابق فى مثلث القارة الجنوبى .

أما فى آسيا العربية — باستثناء فلسطين المحتلة منذ قيام اسرائيل — فقد أصبح اليهود مجرد بقايا لا وزن لها فى اى مكان ، بضعة آلاف أو مئات فى بعض وحدات منها وليس كلها . أما قبل ذلك فكانت أهم تجمعاتهم فى العراق (١٠٠ ألف) واليمن (٧٠ ألفا) بينما خلت وتخلو منهم بقية الجزيرة العربيـة . واليوم تاتى ايران كاكبر جالية يهودية فى آسيا خارج العالم العربى . (٨٠ الفا) تليها الهند (٢٥ الفا) — أما يهود تركيا فمركزون عمليا فى اسطنبول على البر الأوربى لا الأسيوى . وربما اتت بعد ذلك جمهوريات آسيا الوسطى السوفيتية بجالياتها اليهودية القـديمة ، وجمهورية بيروبيدجان فى الشرق الأقصى السوفيتى بمستعمرتها الجديدة . وعدا هـذا فبقية آسيا « خالية » من اليهود الا من أعـداد رمزية بحتة هنا وهناك .

أما فى العالم الجديد فان اليهود يتركزون أساسا فى الشمال الشرقى ، الربع الغنى ، ثم تلى نوية ثانوية فى الغرب الأوسط وولايات الهارى . أما فى الجنوب عامة

وولايات الجبال فيقلون كثيراً . وبالمثل فى أمريكا اللاتينية يتركز اليهود على السواحل الشرقية أولا ، وفى النطاق دون المدارى أو خارج المدارى ثانيا ، كما فى البرازيل والارجنتين . ومن هذا النمط ، واذا تذكرنا معه انتقال احد مركزى ثقل اليهود فى أوربا من وسطها الى غربها ، يمكننا بسهولة أن نتصـور الكتلة الكبرى من اليهودية العالمية تتجاذب كما لو مغناطيسيا نحو سواحل المحيط الأطلسى شرقية وغربية . فاذا ما أضفنا الى ذلك نمط التوزيع فى أمريكا الجنوبية ثم تركز يهود شمال افريقيا تقليديا فى المغرب ، لجاز لنا أن نقرر أن الأغلبية العظمى من يهود العالم تحف بشواطىء ذلك المحيط ، بعد أن كانت حتى القرن الماضى تتركز أساسا فى القلب القارى للعالم القديم .

١٠ . طفيليات المدن

تلك بصورة عامة الخطوط العريضة في توزيع اليهود على سطح الأرض . غير اننا ننسى نصف الحقيقة اذا نحن اغفلنا خاصـية نادرة وشديدة الالحاح والتواتر فى التوطن اليهودى ، واعنى بها سكنى المدن . فاليهود بالدرجة الاولى سكان مدن ، وسكان مدن كبرى بالدقة ثم هم الى ذلك سكان عواصم بالتفضيل والامتياز . وانت حين تتكلم عن يهود دولة ما فانت تتكلم في الحقيقة عن يهود العاصمة ومدينة او اثنتين الى جوارها . وهذه حقيقة طاغية وابدية طوال تاريخ اليهـود قديما كان او حديثا ولا تتبلور كما تتبلور في وقتنا هذا . والامثلة تغنى عن الحصر ، ولعل اوضحها في الذهن المثال الامريكى .

فمدينة نيويورك الكبرى تضم وحدها أكثر من مليونين ونصف مليون يهـودى ، اى اكثر من نصف يهـود الولايات المتحـدة وما يكاد يقارب كل يهود الاتحاد السوفيتى • وهى بذلك اكبر « ارسـاب » يهودى فى اى نقطة منفردة فى العالم : انها تل ابيب الكبرى ، بل انها هى اسرائيل الكبرى • وبقية يهود الولايات موزعة بين المدن الكبرى بصرامة . وتدل الدراسات السكانية فى الولايات المتحدة على أن عدد اليهود فى المدن يتناسب تناسبا طرديا مع أحجامها ، فهم اقوى مايكون فى نيويورك تليها على الأرجح شـيكاغو ، بينما لا وزن لهـم مثلا فى بوسطن .

هل تريد مزيدا من الأمثلة ؟ فى كنـدا حيث كل اليهود ٢٣٣ الفا نجد ٧٧ الفا فى تورونتو ، ٦٥ الفا فى مونتريول • فى باريس ١٧٥ الفا أى ٥٠٪ من كل يهود فرنسـا البالغين ٣٥٠ الفا . فى لندن ٢٨٠ الفا من أصل مجموع ٤٥٠ ألفا . مدينة تونس ٥٥ الفا بينما أن دولة تونس ٨٠ ألفا . اسطنبول ٥٠ ألفا فى حين ان كل يهود تركيا ٦٠ الفا . فى جمهورية جنوب افريقيا ١١٠ آلاف ، ٥٠ الفا منهم فى جوهانسبرج وحدها . وفى اسـتراليا يتركز فى مليون ٢٥ ألفا وفى سيدنى ٢٢ ألفا من مجموع كى قدره نحو ٥٧ ألفا • وهكذا وهكذا • حتى فى فلسطين المحتلة تحول المغتصبون الدخلاء المقتلعون الى سـكان مدن : فمنذ بضع سنين كان ٧٥ر٩٪ من سكان اسرائيل يتكدسون فى المدن ، وكانت بذلك ثالثة دول العالم بعـد اسكتلندا ثم انجلترا وويلز فى درجة المدنية urbanism . والمؤكد أن هذه النسبة قد زادت منذ ذلك الوقت ، ومن المؤكد كذلك أن العالم لا يعرف دولة قزمية بهذه الدرجة

الصارخة المتحرفة من المدنية . ولكنها ببساطة « حثالة مدن » العالم انصبت واستقطبت فى دولة ..

والمعنى المباشر لهذا كله أن اليهود ، وقد رأينا أن توزيعهم الفعلى ليس عالميا بالصورة المطلقة المرسومة فى أذهاننا ، أبعد شيء عن التوزيع « الغطائى » الشامل وانما هم أدنى الى التوزيع النقطى البحت . الصورة المجازية ليست نهر مجرة مرصعا عالميا بمستعمرات اليهود ، ولكنها يمكن أن تكون منثورا من النوى والنويات السديمية هنا وهناك . على أن هذا ان حدد مجالاتهم الجغرافية ، فانه عادة ما يجعل منهم أقليات هامة أو خطرة فى بيئاتهم المدنية تلك ، بل قد يؤلفون الاغلبية فيها أحيانا كما عرفت بالفعل بعض مدن بولندا فى القرن الماضى، مما يفسر سيطرتهم المادية والسياسية من ناحية ، ويضخم شعورهم بالذات من ناحية أخرى ، وبالتالى يفاقم من شدة التعصب ضدهم والاضطهاد من ناحية ثالثة ..

الام نرد هذه الظاهرة المميزة — الى غريزة « طفيلية » استغلالية فى طريقة الحياة اليهودية ، أم الى قوى ضغط خارجية ؟ يرى البعض أن قوانين العصور الوسطى حرمت على اليهود امتلاك الأرض وفرضت عليهم حياة « الجيتو » . ولكن البعض الآخر يرى أن اليهودى مرتبط بالمال والتجارة والسمسرة والربا ابدا ، وأنه يكره العمل اليدوى الشاق أو فى الخلاء ، يكره بذل الجهد

الجسمانى بعامة ، ويفضل أن يعيش بعقله لا بعضله brain not brawn . من هنا ــ وليس من هناك ــ يبتعد عن الزراعة أولا عن الصناعة الى حد بعيد ، ولذا لا يكثر فى المناطق الزراعية او الصناعية ويتقاطر على العكس فى المدن حيث الأعمال الحرة والمعاملات التجارية والنشاطات المالية والمصرفية .. الخ .

والواقع أنه ليس بالعالم كله مجتمع يهودى زراعى واحد يستحق الذكر ، وباستثناء بعض خلايا معزولة فى الروسيا القيصرية وبولندا القديمة لا نعرف فى التاريخ الحديث أن اليهودى ارتبط بالزراعة . وبالمثل فى التعدين والصناعة : فمن الغريب ان الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة ــ على شدة تباين وتناقض مذاهبها ــ لا يعرفان يهوديا واحداً من عمال المناجم بالذات ! وعلى العكس من ذلك كله التجارة والمهن الحرة ، فقديما كانت كلمة اليهودى مرادفة لكلمة « التاجر » ، وحديثا يحتشد اليهود فى الوظائف الحرة كالطب والمحاماة والتجارة والمال والصحافة حتى لنجد ، على سبيل المثال ، أن نصف مجموع الأطباء والمحامين فى ولاية نيويورك ــ ودورها المحورى فى الاقتصاد الأمريكى تلخصه ببلاغة الكناية اشارة الى ناطحة السحاب المشهورة ! ــ نجد نصف هذا المجموع من اليهود .

« Empire State » الساخرة « بالولاية الامبراطورية ،

ومن الواضح من هذا كله أن طراز حياة اليهودى

هو الأعمال غير المنتجة والوظائف الطفيلية . ومن المحقق أن هذا سبب أصيل وعميق فى كراهية الأمم لهم ، ولعله ـ أكثر من التعصب الدينى البحت ربما ـ المصدر الأول لاضطهادهم ومقتهم . واليهودى بهذا كله قد أصبح مركبا اقتصاديا ـ اجتماعيا شديد الوضوح حتى ليضرب به المثل وحتى اتخذ علما ونموذجا على حالات مشابهة: كذلك مثلا يطلق على الجاليات الصينية التاجرة خارج الصين « يهود جنوب شرق آسيا » ، وكذلك يوصف الهنود فى مدن ساحل افريقيا الشرقية « بيهود شرق افريقيا » ! ومهما يكن من أمر ، فان الحقيقة تظل قائمة من أن اليهود سكان مدن اساسا ، أكاد أقول « طفيليات مدن » أساسا، وتظل لها نتائجها الاجتماعية والجسمية التى ستنعكس كما سنرى على مشكلتهم الانثروبولوجية .

مجتمع الجيتو

لقد رأينا حتى الآن أن توزيع اليهود توزيع كوزموبوليتانى أولا ، ومتروبوليتانى ثانيا ، ولكن يبقى أخيرا أن نضيق بؤرة عدستنا أكثر وأكثر لنرى الخلية النهائية والأساسية فى توزيع اليهود . انها الجيتو ghetto ، حى اليهود أو معزلهم فى المدينة ! فطوال عصور التاريخ ، وفى كل البلاد والأقاليم ، ارتبط اليهود كقاعدة بلا استثناء بالمعيشة السكنية فى حى خاص من

المدينة : الجيتو كما يقال له فى كثير من بلاد أوربا وأمريكا، أو حارة اليهود فى ألمانيا Judengasse وكما نقول نحن فى مصر ، وهو اليوديريا فى اسـبانيا الوسـيطة Juderia ، أو هو الملة mellah كما يقال فى مدن المغرب . العربى ، أو القاع قاع اليهود كما فى مدن اليمن .

وكثيرا ما كانت هذه الوحدة الخلوية اليهودية تغلف بحائط خاص داخل المدينة ، وأحيانا كان الحى برمته يقام خارج أسوار المدينة الأم ذاتها امعانا فى العزل . وفى الغالب الأعم يؤلف حى اليهود قطاعا من الأحياء الفقيرة المنحطة من المدينة ، ويكفى فى هذا الصدد ان نذكر كمجرد مثال حى ستينى وهوايتشابل Whitechapel Stepney فى الايست اند نطاق الفقر الشهير فى شرق لندن . ومع ذلك فقد كان أغنياء اليهود يتعدون هذا الحصار ليعيشوا فى الأحياء الراقية غير اليهودية ، كما أن تطور الحيـاة الاجتماعية يقلل الآن كثيرا من صرامة عزلة الجيتو .

ومع ذلك وما ، الفـور نفهم أن العزل السـكنى residential segregation هـو قانون اليهـودى فى المدينة . وكثيرا ما يرتد هـذا العزل الى قوانين الدول والشعوب التى يعيش اليهود بين ظهرانيها، يفرضونه بالقوة على اليهود تباعدا عنهم واستعلاء عليهم كفئة من المنبوذين أو البارياه pariah كما يعبر ماكس فيبر ، وكذلك احكاما للرقابة عليهم وحصرا لاخطارهم . ولكن كثيرا أيضا ما يرجع هذا الى صنع اليهود أنفسهم ، سعيا منهم كأقلية مسحوقة

الى التركز والاحتشاد فى نقطة واحدة ضمانا للحماية فى حظيرة واحدة . لقد بدأ اليهود رحلا فى عصر التوراة ، وظلوا رحلا فى عالم الشتات ، وككل قطعان الرحل أبوا الا ان يعيشوا فى حظائر مسورة داخل مدن الشتات ..

الأصل الجنسي لليهود

حتى الآن لم نعرض الا لتاريخ اليهود عبر الزمان ولتوزيعهم فى المكان ، دون أن نتعرض للجانب الانثروبولوجى البحت أصلا وجنسا . وقد آن لنا آن نسائل أنفسنا : من هم اليهود وأين يقعون فى العائلة البشرية ؟ ما العلاقة بين يهود التوراة ويهود اليوم ، والى أى مدى ينتسب يهود القرن العشرين بعد الميلاد الى بنى اسرائيل القرن العشرين قبل الميلاد ؟ وثمة علامات استفهام أخرى تنبع بالضرورة من تلك : هل ثمة من نقاوة جنسية يمتاز بها اليهود ؟ ما مدى الصحة فى القول بأنهم والعرب « أبناء عمومة » ؟ على هذه الاسئلة يتوقف كثير من المزاعم والادعاءات السياسية ، وعلى اجاباتها يتوقف الرد عليها وتفنيدها .

والواقع أننا ينبغى أن نلتفت بوعى الى أن هناك علاقة حتمية بين الدراسة الانثروبولوجية الصرفة وبين الجانب السياسى كما يتمثل فى الاطماع السياسية ، كما ينبغى أن ندرك أن الصهيونية السياسية تسخر الأبحاث الانثروبولوجية وترتب نتائجها مسبقا بحيث تخدم

دعاواهم الاستعمارية فى فلسطين ، وصميم القضية أنهم ، اذ يبحثون عن مبرر من الجنس للعودة الى « أرض الميعاد » يشرع اغتصابهم لفلسطيننا العربية ، يركزون بؤرتهم على « النقاوة الجنسية » لليهود ، بمعنى أنهم بعد أن يخرجوا ببنى اسرائيل من فلسطين الى الشتات يلحون فى أنهم ظلوا نقاة بمنأى عن الاختلاط الدموى مع الشعوب التى انتشروا بينها (الجوبيم كما يسميهم اليهود ، أو الجنتيل Gentiles كما يسمون هم أنفسهم ، أو « الأمم » كما نقول نحن العرب) ، وأن يهود اليوم أينما كانوا هم بذلك النسل المباشر لبنى اسرائيل التوراة ، ومن ثم فهم فى آن واحد مجموعة جنسية واحدة ، وقومية تاريخية واحدة ، مثلما هم طائفة دينية واحدة • ومن ذلك جميعا يخلصون، لا الى تدعيم أسطورة « الشعب المختار » ، الشعب النقى الخالص فحسب ، وانما كذلك وفى الدرجة الأولى الى تدعيم حق العودة المزعوم واغتصاب فلسطين •

بهذا تصبح قضية النقاوة الجنسية قضية محورية فى المناقشة بالضرورة • والحقيقة أن فكرة النقاوة هذه منتشرة وشائعة الى حد غير عادى ، لا فى التقاليد الدارجة عند رجل الشارع الأوربى فحسب ، ولكن حتى بين بعض من علماء الأجناس أيضا ـ لا شك لاعتمادهم على كتابات اليهود أنفسهم عن أنفسهم ، وهى الكتابات التى تبدأ من فكرة قبلية مسبقة موجهة الى أهداف بعيدة غير موضوعية • ولكن هناك ـ لحسن حظ العلم ـ من وقف

طويلا عند المشكلة باستقلال وموضوعية ، وأثبت أن دعوة النقاوة أبعد شيء عن الحقيقة والواقع ٠

وبهذا نكون ازاء مدرستين أو اتجاهين : اتجاه يرى اليهود متميزين مختلفين فى صفاتهم الجنسية عن السكان المحيطين مهما وانى كانوا ، وبالتالى يؤلفون عبر العالم وحدة جنسية أو نمطا اثنولوجيا متفردا بارز الوضوح ٠ واتجاه آخر يراهم صورة مقربة من السكان المحيطين فى كل مكان وانعكاسا لتركيبهم وتكوينهم الجنسى ، ومن ثم لا يؤلفون الا وحدة دينية لا جنسية أو جينية ٠ وبين الأنثربولوجيين ، يمكن أن نتخذ كون Coon رمزا بدرجة أو بأخرى للاتجاه الاول ، بينما يقف ربلى Ripley علما على الاتجاه الثانى ٠

ونحن هنا سندير مناقشتنا بالفصل حول هذه الفكرة الفاشية فكرة النقاوة ، فنبدأ أولا باعادة تركيب الصورة والأصل الجنسى ليهود التوراة فى فلسطين كنمط اثنولوجى محدد ، ثم نتتبع الصفات والملامح التشريحية والجسمية لليهود فى المهجر والشتات لنرى الى أى حد تتفق مع ذلك النمط الابوى الاصلى القديم ٠ وفى هذا المجال سنحاول أن نعزل أولا تلك الصفات والملامح التى تتكيف بالبيئة طبيعية أو اجتماعية بحسبانها عناصر مكتسبة لا تكشف أصلا أو عرقا ، فلا يبقى بعدها فى البؤرة الا الصفات الوراثية الدفينة الحقة التى يمكن لها وحدها أن تقرر وتحدد مسافة الخلف أو القرب بين يهود

التوراة ويهود اليوم ، ومن ثم مدى النقاوة فالاستمرارية الجنسية بينهما • وبذلك كله نستطيع ان نحدد موقفنا من النظريتين الأساسيتين نظرية النقاوة ونظرية الاختلاط •

الاجماع بين الانتروبولوجيين كامل على آن يهـــود عصر التوراة فى فلسطين هم مجموعة سامية من ســلالة البحر المتوسط بصفاتها التى نعرف ونرى اليوم من سمرة فى الشعر وتوسط فى القامة وطول الى توسط فى الرأس وقد اختلط يهود بنى اسرائيل فى فلسطين مع الجمـــاعات الأخرى السابقة لها واللاحقة بها من كنعانيين وعموريين وفلسطينيين ، وتمثلوا كثيرا من دمائهم وابتلعوا أعـدادا منهم حتى أصبحوا هم أنفسهم مجموعة مركبة عبرية بعامة ولكن تلك الجماعات نفسها لم تكن لتخرج عن نفس السلالة الجنسية القاعدية المتوسطية ، ومن ثم لم يغير الاختـلاط معها النمط الاساسى لليهود فى قليل أو كثير •

والأدلة المباشرة لدينا محدودة ولكنها مقنعة • فثمة قليل من الجماجم عثر عليها فى فلسطين وخارجها تعود الى عصر سليمان وبعده ، وتشير الى سلالة البحر المتوســط مع قلة نادرة من حالات عرض الرأس • وأهم من ذلك رسوم وتماثيل قدماء المصريين والبابليين التى تحـــدد كل الجماعات والعناصر التى ذكرنا ومن بينها يهود فلسطين الأوائل التى لا تختلف عن ملامح العموريين والساميين • فبينما يبدو الفلسطينيون كالأوربيين من ســلالة البحر المتوسط ببشرة فاتحة اللون ، يبـــدو العموريون طوال

الوجوه ، ببشرة مصفرة وأنوف محدبة ، ويبدو الساميون ـ الذين يشملون لاشك الكنعانيين ـ بجباه مائلة وأنوف مبالغ فيها كأنوف العرب والعراقيين اليوم • وعلى هذا يمكن القول ان يهود فلسطين أيام داود كانوا سمرا من سلالة البحر المتوسط ، على عدة أنماط ، واحد منها على الأقل طويل الوجه أقنى الأنف • واذا أضفنا دلالة التوراة فيمكن أن نردف قصر القامة ، ففى التوراة يصف سفر الاعداد الاسرائيليين بالمقارنة الى العموريين أبناء أناك بأنهم «as grasshoppers in their own sight»

ويعنينا هنا أن نقف قليلا عند عنصرين بعينهما وهم العموريون والحيثيون فثمة نظرية قديمة كانت ترى فى العموريين (الشعب الأحمر) عرقا « نورديا » أشقر ، وكانت ترد ما فى يهود اليوم من شقرة اليهم • ويبدو أن أصل هذه النظرية يرقى الى مؤرخ الشرق القديم سايس Sayce وثمة نظرية قديمة كذلك كانت تعد الحيثيين من الأرمينيين Armenoids عراض الرؤوس ، واليهم كانت ترجع عامل عرض الرأس وتحدب الأنف فى يهود اليوم • ولعل أول من روج لهذه النظرية هو ينسن Jensen

وهاتان النظريتان اللتان كان هادون من أنصارهما يمكن الترتيب على أساسهما للزعم بأن اليهود يبدأون فى موطنهم الأول وهم مختلطون ويمثلون أكثر من نوع أو نمط جنسى محليا ، وبالتالى يمكن على أساسهما تفسير اختلافات الصفات الجنسية ليهود اليوم داخل حدود نظرية النقاوة الجنسية • غير أن كون يثبت خطأ النظريتين نهائيا

فلم يكن العموريون شقرا أو حمرا بل صفرا ، ولا كان الحثيون أرمينيين بصــورة ما ، بل ليس هناك دليل تاريخى على اختلاط هام لليهود بهم ٠

لنحاول الآن أن نبحث عن يهود معــاصرين يمكن اعتبارهم بغير شكوك اســتمرارا نقيا لبنى اسرائيل عصر التوراة حتى نقارن بين الطرفين ٠ ليس بالعالم اليــوم مجتمع يهودى واحد أفلت من الاختلاط البيولوجى مع غيره من المجتمعات اليهودية منذ أولى مراحل نشأتها ٠ ولهــذا السبب لسنا نستطيع أن نفترض أن أى جماعة من اليهود الشرقيين أو غير الشرقيين تمثل تمثيلا صـــادقا يهود فلسطين أيام المسيح ٠ ولكن لعل السامريين هم المجموعة الوحيدة من اليهود التى يتفق الجميع على أنهــا ظلت فى فلسطين طوال التاريخ حتى يومنــا هذا فى عزلة كاملة وتزاوج داخلى ضيق وفى نقاوة لاشك فيها ، وأنهم أكثر من أى مجموعة أخرى يمثلون العرق اليهــودى الفلسطينى الأصلى القديم ٠

هم فى قرية من قرى نابلس يقيمون ، وعــددهم اليوم لا يعدو المائة أو المائتين ، أى أنهم يتجهون من قديم نحو الانقراض المحقق ٠ هم متوسطو الرؤوس ، الوجه طويل ضيق ، ولكن القامة أطول من المألوف المعروف عن اليهود ، كما يبدون نسبة من اللون الفاتح أكبر من المعهود فى سلالة البحر المتوسط ، ولو أن السمرة تظل سائدة ٠ وبالنسبة ليهود فلسطين بعامة في أوائل هذا القرن ــ أى

قبل هجرة الصهيونية ـ فالقـــامة قصـــيرة ، والرأس متوسط والوجه ضيق كثيرا ، والانف الاقنى يسود بين نحو ٨٠٪ من العينة المدروسة • أما الشقرة فلا وجود لهـــا •

صفات اليهود الجسمية

لعل الصورة الجسمية لليهـــودى القديم ، يهودى فلسطين قبل المسيح ، قد اتضحت معالمها العامة لنا الآن• ونستطيع اذن أن تنطلق فى جولتنا حول العالم لنقـــارن اليها صفات يهود اليوم • ولنبدأ ببعض الصـفات والملامح الأكثر شيوعا فى التصـــور الدارج عن اليهـود ، ولكن الأقل مغزى فى الدلالة الانثروبولوجية ، لنبدأ بالقـامة وما يتصل بها من محيط الصدر ، ثم بملامح الوجه عامة والأنف خاصة •

من الشائع جدا عن اليهودى أنه قصـير القـامة ، ان لم يكن حقا كالقزم أحيانا • وهـــذا صحيح علميا ـ أو بالدقة كان ـ الى حـد كبير • فالدراســـات المترية تظهره فى أغلب الحالات فى كل الدنيا أقصر من غير اليهود بضع بوصات تزيد أو تقل فقط بحسب طول القامة السائد حوله • وفى المتوسط لاتتعدى تلك القـامة عند اليهودى الناضج قامة صبى فى السادسة عشرة من الجنتيل الأمريكى • وحيث ترتفع نسبة اليهود عدديا ـ كما كانت

الجبال فى بولندة فى القرن الماضى ــ يخفضون بوجودهم من مستوى أو متوسط القامة العام بنسبة وجودهم وبنسبة طول الجنتيل • ولا تكاد تعرف الانثروبولوجيا استثناء لهذه القاعدة الا حالات نادرة : ففى يهود التركستان تتساوى القامة مع السكان المحيطين من التأجيك ، وفى أوديسا وريجا وجد اليهود أطول من المسيحيين ، وفى تونس وجدوا أطول من العرب ، وقد رأينا منذ قليل أن السامريين ليسوا أطول من جيرانهم الفلسطينيين فحسب ولكنهم يعدون طوال القامة عن أى مستوى •

هل يمكن أن يعد قصر القامة اذن صفة جنسية اصيلة من المركب اليهودى ؟ كلا على الأرجح ، رغم ذلك ورغم اشارة التوراة الى الظاهرة • فمن ناحية لا يمكن أن نتكلم عن وحدة النمط اليهودى من حيث القامة ، لأنه برغم سيادة القصر فان هناك تفاوتا محسوسا بين مجتمعات اليهود المختلفة ، وكذلك يتراوح أشكناز أوربا فيما بينهم كثيرا • ومن ناحية أخرى فالثابت الآن علميا بلا مراء أن القامة صفة جسمية مرنة مطاطة تتكيف بالبيئة الطبيعية والاجتماعية ، بالصحة والتغذية ، وأنها صفة مكتسبة وظاهرة اجتماعية مثلما هى ، أو أكثر مما هى ، وراثية جامدة • وأغلب الظن أن قصر قامة اليهود هووليد الجيتو وحياة التوتر والخوف من الاضطهاد • كما أن من المعتقد أن تفشى عادة الزواج المبكر جدا بين اليهود حتى وقت قريب كانت مسئولة عن نوع من الانحطاط الجسمى

انعكس على القامة . أما حين وحيث تزول هذه الظروف البيئية فان قامة اليهودى تنطلق لتقترب من قامة الجنتيل كما فى حى الوست اند الراقى بلندن وكما حدث حديثا فى الولايات المتحدة . ومن قبل كان اليهود أطول قامة فى أوكرانيا الخصبة منهم فى ليتوانيا الفقيرة المجدبة .

عدا القامة الضئيلة ، يوصف اليهودى عادة بضيق الصدر . والأدلة العلمية تؤكد مرة أخرى الفكرة الدارجة فتجد محيط الصدر أقل كثيرا من المتوسط العام عند الجنتيل ، وسعة الرئتين ضئيلة والقفص الصدرى مسحوبا مسطحا . والقياسات من مختلف أجزاء العالم لاتختلف فى هذا الصدد . ولكن مرة أخرى نعود فنجد أن هذه نتيجة طبيعية لنمط الحياة وللبيئة الى جانب الحرفة . فالحرف الداخلية التى فرضها الجيتو على اليهود ، لا سيما الحرف اليهودية التقليدية منها كالحياطة والصياغة وصناعة الاحذية .. الخ ، ترتبط وثيقا بتلك الظاهرة . ولذا فانها ــ كالقامة ــ لا يمكن أن تكون صفة جنسية أصيلة ولا دليلا قاطعا له وزنه فى تحديد الأصول الوراثية لليهود . وفى الولايات المتحدة حيث تحسنت بيئة اليهود جدا تختفى الظاهرة تماما .

وننتقل بعد هذا الى جانب يبدو على السطح أكثر خطورة ومغزى ، ولعله أكثر ما يقال عن اليهود شيوعا عند الرجل العادى ، وأعنى به ملامح الوجه أولا والنظرة العامة أو « السحنة » ثانيا . فالشائع الدارج أن اليهودى يتصف

تقليديا بالسمرة (والمقصود هنا سمرة الشعر والعين لا البشرة ، أى برونت) ، ثم بالأنف الأقنى الضخم ، والعيون المنتفخة ، والشفاة الممتلئة • أما عن النظرة العامة فالمقول الشائع والمتداول هو أن هناك « نظرة » يهودية » أو « سحنة يهودية » بطريقة ما تميز اليهودى لأول وهلة ويعرفها هو جيدا عن نفسه كما يعرفها الجنتيل• فما مدى صحة هذه الافكار الدارجة ، وما قيمتها فى تحديد نقاوة وأصل اليهود ؟

أما أن اليهودى أسمر الشعر والعين ، فحقيقة تؤكدها الدراسة العلمية ، ولكن لاكقاعدة عامة مطلقة وانما كاتجاه سائد • وفى أجزاء كثيرة من أوربا وجد أن نسبة السمر بين اليهود تصل أحيانا الى ثلثى العينة المدروسة ، وأن هذه النسبة تعادل ضعفى مثيلتها بين الجنتيل • (ونسبة السمرة دائما أعلى ـ بالمناسبة ـ بين اليهوديات منها بين اليهود) ومع ذلك ففى مناطق معينة من بولندا وجد أن نحوا من ثلث الى خمسى اليهود ذوو شعر فاتح • كذلك فمن الثابت أن هناك عنصرا أوضح من الشقرة بين اليهود الشرقيين ، يجنح بهم الى اللون الأصهب rufous وحتى بين السفارديم هناك كثير من الشقر • وتبدو الشقرة واضحة كذلك فى يهود الالزاس واللورين ، وأوضح وأوضح فى يهود انجلترا •

نصل من هذا الى أن سيادة السمرة بين اليهود ليست الا نصف الحقيقة ، وربما كان أهم منها أنه ليس

هناك وحدة لونية بين يهود العالم من ناحية ، ومن ناحيه أخرى أن تفاوت لون الشعر والبشرة بينهم ما بين شقرة وسمرة انما هو ظاهرة لا يمكن أن تنفصل عن لون السكان المحيطين بدرجة أو بأخرى • فمن حيث الشعر والعـين ، لانجد فى فلسطين عامة شقرة ما (قبل اسرائيل) بينمـا يبدى قلة من السامريين بعض شقرة خفيفة ، وفى العراق ودائرة القوقاز تسود السمرة ، هذا بينمـــا فى شمال افريقيا تحدث الشقرة بنسبة ٥٪ ، ترتفع الى نســـبة السدس بين سفارديم سالونيك واسطنبول ، وفى القرم ٧٥٪ سمر من البرونت والباقى من لون فاتح ، ثم بين اشكناز أوربا تهبط نسبة السمر الى ٥٥٪ وتتحدد نسبة الشقر بنحو ١٠٪ والباقى لون فاتح ، حتى اذا ما وصلنا الى يهود ليتوانيـــا كان ٥٥٪ من لون فاتح • فهذه اذن سلسلة تصاعدية يبدى لون اليهود فيها معامل ارتبـاط وثيق مع لون السكان المحيطين الســـائد • ويرى كون أن أشكناز أوربا قد حققوا لانفسهم توازنا ثابتا بطريقة ما فى لون الشعر والعين : ففى البلاد التى يغلب على الجنتيل فيها الشقرة أو الشقرة على السمرة نجد اليهـــود أميل الى السمرة نسبيا ، وفى البلاد التى تسود السمرة فيها بين الجنتيل مثل رومانيا فان اليهـود تميل الى أن تكون أكثر شقرة • وسواء اتفق هذا الرأى مع معـــامل الارتباط الواضح فى السلسلة السابقة أو تعارض معـه ، فالشىء المؤكد أن اليهود ليسوا متجانسين لونا •

أما عن لون البشرة نفسها ، فالفروق بين اليهـــود ليست أقل حدة ، وليس ثمة نمط موحد البتة • فهم بين سفارديم البحر المتوسط والشرقيين بيض مشربون بسمرة خفيفة بعامة • وهم كذلك فى التركستان حيث يشبهون فى لونهم لون جيرانهم تاجيك الجبال مثلما يشبهونهم فى غزارة شعر الجسم • أما فى اليمن فهم ان بدوا أفتح قليلا من اليمنيين فما ذاك الا لحياتهم فى الظل بعيدا عن العمل فى الخلاء • أما فى أوربا فلا يختلف الاشكناز عن الاوربيين فى لون البشرة •

وعلى النقيض من هؤلاء اليهود البيض ، فثمة « اليهود السود » الذين يقعون خارج التقسيم الثلاثى لليهـــود الى أشكناز وسفارديم وشرقيين • من هؤلاء الفلاشة Falasha فى شمال الحبشة ، وهم الى حد كبير متزنجون Negroid ويتكلمون لغة الاجاو الكوشية القديمة • ومنهم كذلك فى افريقيا الدجاتون Daggatuns فى جنوب الصـــحراء الكبرى • أما فى آسيا فهناك اليهود السود من التاميل فى كوتشين بجنوب غربى الهند ، وهم يسمون هنـــاك هكذا تمييزا لهم عن جيرانهم « اليهـــود البيض » الذين ينحدرون من أصل فلسطينى منذ أيام الشتات الاولى • وربما جاز لنا أن نضيف الى نماذج اليهود السود مجموعات فى أمريكا اللاتينية من الزنوج أو الخلاسيين الذين اعتنقوا اليهودية أو اختلطوا بيهود مهاجرين •

ننتقل الآن الى الأنف • فأما الانف الاقنى المحدب

ـ الذى ألصق باليهود واشاعه رسام الكاريكاتير حتى صار علما : « الأنف اليهودى » ـ فليس فى الحقيقة صـــفة يهودية • فالملاحظات الانثروبولوجية تثبت أولا أنه ليس منتشرا بين اليهود بدرجة خاصة أو غير عادية ، وأنه ثانيا منتشر بين غير اليهود بحرية وبلا حـــدود • فبين يهود بولنده لم تزد نسبة حدوثه عن ٩٪ من العينـات ، وهى نفس نسبة البولنديين ، ولو أن النسبة ترتفع فى غاليسيا الى ٣٠٪ • وفى مدينــة نيـــويورك لم يعثر على الأنف « اليهودى » الا بين ١٥٪ من ذكور اليهود الراشـدين • أما الشكل الاكثر حدوثا بين اليهود فهو الانف المستقيم كما فى يهود شمال افريقيا ويهـــود العـــالم العربى والسفارديم • مثلا بين يهود اليمن ٦٠٪ أنوف مستقيمة ، بل وهناك نسبة من الأنف المقعر • وبين اشـكناز أوربا تسجل القياسات سيادة الانف المســتقيم فى حين يقل الانف المحدب عن النصف دائمـــا • بل ان الانف المقعر ليكثر بين يهود الروسيا حيث يكثر الشكل بين السلاف الشماليين عامة • فهناك ترجح نسبة حدوث الانف المقعر نسبة الانف المحدب كثيرا ، بينما فى ليتوانيا تصل نسبة الانف المقعر الى ٥٠٪ ويختفى الأنف المحدب كلية •

ومن الناحية الاخرى ، فالانف الاقنى المحـــدب شائع بوفرة بين غير اليهود : وجد بين ثلث العينـــة فى جنـــوب شرق بولنـــدا ، وهو منتشر كثيرا بين العرب والافغانيين وكثير من الاوربيين •• الخ • ونحن أقرب الى

الصحة ـ فيمـــا يرى كون ـ حين نصف الانف الاقنى « بالانف السامي » منا اذ نصفه « بالانف اليهودى » ، ولو أن هادون يرى عكس هذا تماما حيث يقــول ان تسمية الانف اليهودى بالسامي خطأ شائع وأنه فى الحقيقـة من أصل أرميني ٠

وأيا ما كان ، فالذى يميز الانف اليهودى حقا انما هو تشكل أو تشوه خاص يشمل انخفاض أو تدلى طرف الانف مع ارتفاع جناحي المنخرين حتى ليبدوان معلقين على الوجنتين ، مما يؤدى بالتالى الى ظهور قصبة الانف مرئيه بوضوح ٠ والظاهرة ككل يمكن أن نســـمى « بالمنخره nostrility » وتقرب بروفيل الانف كثيرا من رقم 6 الافرنجي مد ذيله ٠ وهذا قد يعطى شعورا بتحدب الانف فى حين أنه مستقيم فى الواقع ٠ ولكن يبقى بعد ذلك كله أن هذا النمط لا يوجد لدى كل اليهود أو حتى أغلبهم ٠ وفي النتيجة فان من المستحيل أن نتكلم عن نمط أو شكل يهودى بعينه من الانف ، ولا يعرف اليهود وحدة أنفيـــة أكثر مما يعرفون الوحدة اللونية ٠

تبقى العيون ٠ الحاجبان ، اللذان يبـــدوان ثقيلين لسوادهما ، أميل عادة الى أن يقتربا بعضهما من بعض ٠ أما العيون فبينما نجد عيونا شريطية غائرة بين اليهـــود العرب ، تسود بين أشكنازيم أوربا العيون « المائيـــة » الضخمة البارزة والجفون المتفخة الثقيلة التى ـ كما يعبر ريلى ـ تعطى شعورا اما بالحزن أو النظرة الحالمة واما بالخبث

المكتوم . على أن المهم أن ليس هناك عيون خاصة باليهود وبالمثل فان ما يقال عن امتلاء الشفاه مع بروز الشفة السفلى مدلاة أن لم تكن مقلوبة حقا ، ليس شائعا أو شرطيا بين اليهود .

يبقى الآن ما يقال عن « سحنة يهودية » بعينها يمكن بها التعرف على اليهودى . قد لا يمكن انكار وجود مثل هذه السحنة أحيانا ، ولكن المحقق علميا أنها لاتوجد عند كل اليهود ، فهي ان كانت موجودة بين بعض الاشكناز في أوربا فانها لاتكاد تعرف في أشكناز أمريكا ، كما أنها ليست غير معروفة تماما بين غير اليهود . ومن ثم فهى كثيرا ما تخدع الرائى فى التشخيص فيأخذ غير اليهودى على أنه يهودى واليهودى على أنه غير يهودى . واذا كانت هذه النظرة أو المسحة تتركز بطريقة ما حول العينين والانف والفم ، فان من الصعب تحديدها وقياسها .

ولكن الأهم من ذلك كله ان سحنة الوجه هذه ليست صفة جسمانية بقدر ماهى تعبير اجتماعى مكتسب من البيئة الاجتماعية ، من صنع الجيتو وحياة التشرد والاضطهاد والصراع ضد الاخطار المستمرة حتى لقد اسماها البعض « تعبير الجيتو » . انها باختصار من فعل الانتخاب الاصطناعى لا الوراثة والبيولوجيا « تثبتت عن طريق التزاوج الداخلى والانتخاب الجنسي والانتخاب الاجتماعى والمهنى . ومعنى هذا اننا اذا صادفنا هذه المسحة اليهودية فى الوجه فانما هى مجرد ارث الاضطهاد الدينى أيا كان الاصل الجنسي والسلالة العرقية ودون ان تعنى ان صاحبه من نسل بنى اسرائيل التوراة بالضرورة ».

تلك اذن مجموعة من الصفات الجسيمة المنسوبة الى اليهود أو الملاحظة فيهم ، لا تدل على الاصل العرقى ولا تحسم مشكلة • وهى ان دلت على شيء فانما تدل على انعدام أى وحدة بين يهود العالم فى تلك الصفات ، ان لم تدل حقا على تأثير بعيد المدى للسكان الذين يعيش بينهم اليهود ، أى على الاختلاط الجنسى وامتزاج الدماء • ولكنا نفضل أن نؤجل هذا الحكم ريثما نستكمل بقية صفات اليهود الجسمية • فنصل الآن الى الصفة الجنسية التى تعد محور الدراسات الأنثروبولوجية جميعا ، ترتبط مباشرة بالوراثة ولا تكاد تتأثر بالبيئة ، ويمكن أن تكون مؤشرا وثيقا الى الاصول الاولى ومقياسا ومحكا للنقاوة أو الخلط • انها لا شك شكل الرأس •

وكما رأينا فان يهود بنى اسرائيل فى فلسطين التوراة كانوا ككل الساميين المحيطين طوال الرءوس أساسا • فاذا ما وجدنا رؤوسا غير ذلك بين يهود اليوم فليس ثمة الا تفسير واحد وحيد لاسبيل الى الشك فيه وهو اختلاط الدم بعناصر غريبة • هذا مع التذكرة بأن سيادة طول الرأس نفسها بين أى مجموعة من اليهود لا تنفى عنهم بالضرورة امكانية حدوث اختلاط جنسى ما مع غيرهم من طوال الرءوس ، لان تزواج طوال الرءوس بطوال الرءوس لا ينتج الا طوال رءوس مثلهم • فكيف اذا رصدنا شكل الرأس عند اليهود فى مسح عام ؟

من بين المجموعات الرئيسية الثلاث ، الاشكناز

والسفارديم والشرقيين ، يقع الاشكناز جميعا بين عراض الرءوس ، وأحيانا بين عراض الرءوس جـــدا • هكذا هم فى كل أوربا والعالم الجديد ابتـــداء من الفولجا حتى كاليفورنيا ، حيث تصل نسبتهم الراسية الى مثـــل ما للالمان الجنوبيين والفرنسيين الالبيين • بل أهم من هـذا أنهم فى ذلك يشبهون السكان المحيطين محليـا ويقتربون جدا من شكل ونسبة رأسهم • فليس ثمة فارق مثـلا بين اليهود والمسيحيين بالروسيا وبولندا فى شـكل الرأس ، بينما فى منطقة القوقاز تتحول رءوســهم الى شكل « قمع السكر » الشهير عند الارمنيين والقفقاز ، بل نجده حتى فى يهود التركستان •

على أن كون يلاحظ أن الاشكناز فى أوربا يقلون فى نسبة عرض الرأس ـ وان يكن قليلا جدا ، درجة أو اثنتين ـ عن السكان المحيطين ، كما أن وجوههم أقل استعراضـا أو أكثر استطالة نوعا ما • ولهذا ينتهى كون الى أن اليهود قد حققوا ايضا فى مجال شكل الرأس توازنا ثابتـــا كما فعلوا فى لون الشعر • هذا عن الاشكناز •

ولقد كانت النظرية الشائعة بعد هذا أن السفارديم على طرف النقيض مباشرة من الاشكنازيم ، اى طـــوال الرءوس جميعا • ولكن هذه المقابلة تبسيطية أكثـر ممـا ينبغى ، فحقا يغلب طول الرأس بين السفارديم ، ولـــكن منهم جماعات استعرضت رءوسهم كما فى شـمال ايطاليا حول تورينو وغيرها ، وربما لحقت بهم جماعات أخرى من سفارديم البلقان • ومع ذلك يمكن بصورة عامة جـــدا أن

نقبل تلك المقابلة العريضة من قبيل التبسيط الميسور ٠
هذا ويلاحظ أن السفارديم يعيشون جملة بين شعوب طويلة الرأس كالبربر والعرب بحيث لايمكن للتزاوج أن يغير من شكل رءوسهم وانما على العكس يؤكده ٠ غير أن مما يجدر ذكره أن أبعاد مقاييس الرأس المطلقة فى ذاتها أقل بعامة بين هؤلاء اليهود منها بين شعوب الجوبيم المحيطة ، وأقرب بذلك ـ هكذا يقول كون ـ الى نمط يهود فلسطين التوراة أو السامرة ٠

يبقى اليهود الشرقيون ٠ هؤلاء يأتون فى المنزلة بين المنزلتين أو بالاحرى يقعون فى حدود التنصيف ٠ فجزء منهم طوال الرءوس كالسفارديم ، وهذا يشمل يهود مصر والشام واليمن والعراق وجنوب ايران ٠ وهنا أيضا يلاحظ أن السكان المحيطين طوال الرؤوس ، الا أن أبعادهم المطلقة أى حجم الرأس أكبر نوعا بدرجة و بالاخرى من اليهود ٠ اما الجزء الآخر فهو كالاشكناز استعرضت رءوسهم كما فى شمال العراق ومنطقة جبال القوقاز وشمال ايران ، ثم يهود التركستان الروسية بكل شظاياها ، وأخيرا اليهود القرائين فى القرم وليتوانيا ٠ ففى كل هذه الحالات يعيش اليهود فى محيط واسع من عرض الرأس الشديد ، وفيه استعرضت رءوسهم بشيدة حتى لا يختلفون عنه البتة ٠ الا أن هناك فارقا فى شكل الوجه ـ لا الرأس ـ فهو يميل نوعا الى الاستطالة بينما هو عريض بين السكان المحيطين ، وهو فى هذا يذكر الى حد ما بوجوه يهود فلسطين التوراة والسامرة ٠ ومع ذلك فهو أقل ميلا الى الاستطالة بين يهود

دائرة القوقاز والقرم منه بين يهود دائرة التركستان ٠

من هذا المسح السريع نصل اذن الى أن اليهود يقعون من حيث شكل الرأس فى مجموعتين : عراض رءوس وطوال رءوس ٠ والمجموعة الاخيرة تشمل أغلب السفارديم ونصف الشرقيين ، أما الاولى فتضم النصف الآخر – الشرقى أو الشمالى – من اليهود الشرقيين بالاضافة الى كل الاشكناز٠ ومن الناحية العددية ، ولها هنا مغزى كبير ، تزيد مجموعة عراض الرءوس عن ٨٠ – ٩٠٪ على الاقل من كل يهود العالم ، والاقلية الضئيلة الباقية هى طوال الرءوس ٠ ومن الناحية الجغرافية ، يتوزع عراض الرؤوس من اليهود فى مناطق سكانها عراض الرءوس ، ابتداء من وسط أوربا حتى وسط آسيا ، بينما يقيم طوالهم بين أجناس طويلة الرأس ابتداء من المغرب حتى العراق ٠

ومن هذا وذاك يتضح على الفور أن الاغلبية الساحقة من اليهود انما تحولت الى عرض الرأس بعملية استعراض brachycephalisation أو تأثر بالألبية أو الدينارية كما تسمى علميا Alpinisation Dinaricisation وذلك عن طريق واحد ووحيد وهو التزاوج والاختلاط الجنسى مع غير اليهود ، بينما أن الأقلية التى احتفظت بطول رأسها الأصلى لا يتحتم بالضرورة أن تكون قد أفلتت من مثل ذلك الاختلاط ، ولكنه أمر متروك فى هذه الحالة الى الأدلة التاريخية ٠ وهذا ما ينقلنا الى قضية النقاوة الجنسية والاختلاط ، شواهدها وأدلتها ، أبعادها ومغزاها ٠

نقاوة أم اختلاط :
يهود تأوربوا أم أوربيون تهودوا ؟

حسنا ، بأى مغزى يمكن أن نخرج من هذه الدراسة، وأى معنى تحمل بالنسبة لدعاوى الصهيونية السياسية وغير السياسية ؟ الشىء المحقق أن ما قد يختص ويشتهر به اليهود من « طابع » أو « سحنة » مميزة هو أمر لا ينكره العلم تماما ، ولكنه ظاهرة جزئية ليست بجامعة أو بمانعة من ناحيته ، ومن ناحية أخرى فانها برمتهـا ظـاهرة حضارية من صنع اليهود أنفسهم ونتيجة لاحساسهم الملتهب بذاتهم طائفيا وشعورهم المتضخم بكيانهم الدينى ، وليست صفة جنسية دالة ولا تعنى البتة وحدة الاصل او نقاوة السلالة • بل على العكس من هذا تماما ، يمتاز اليهود • بمناقضة فذة وحقيقية جدا : شبه تجانس أو شبه وحدة جزئية فى السحنة والنظرة العامة ، وتنافر مطلق فى الاصل الجنسى •

ويحاول كون أن يجعل من اليهود طوال الرؤوس من السفارديم وبعض الشرقيين وحدة اثنولوجية ethnic unit قائمة بذاتها ، قد تتباين فيما بينها من منطقة الى منطقة ، ولكنها بعامة تتباين أكثر مع السكان المحيطين • وبالمثل يصور اليهود الاشكناز ومعهم بقية الشرقيين على أنهم وحدة اثنولوجية أخرى • ومع ذلك فهو يعترف بأن كل نوع أو سلالة جنسية معروفة فى أوربا يمكن بسهولة أن تلتقط من

بين يهود القارة ، وأن أغلب اليهود يمثلون خليطا بطريقة أو بأخرى بين عديد من تلك الانواع والسلالات • وكذلك يضيف أن من السهل جدا أن نلتقط من بين يهود الروسيا أفرادا يمتازون بالصدغ الواسع والانف العريض القصير snub وعظام الوجنة البارزة بدرجة لاتفرقهم عن جماعات الفن المغولية التى تسكن منطقة الفولجا ، بينما يوجد بين اليهود الالمان أفراد هم بكل معنى الكلمة نورديون مثاليون•

ويمكن من ناحيتنا ان نضيف على مستوى العالم متناقضات كالموزايكو تكاد تغطى كل ما نعرف بين البشر من اختلافات فى الصفات الجنسية • فثمة اليهود السود فى الحبشة وجنوب الصحراء الكبرى ، واليهود الملونون في الهند ، بل والصفر أحيانا في التركستان ، واخيرا اليهود الشقر في اوربا . او كما لاحظ دالبى Dalby في اواخر القرن الماضي هنالك كل الانواع والالوان بين اليهود ـ البيض والسمر والسود . هنالك اليهودى الربعة غليظ الملامح عريض الراس من الاشكناز ، واليهودى النحيف دقيق الملامح طويل الراس من السفارديم ثمة الأنف اليهودى المحدب والأنف الفطس بين كثير من يهود الروسيا ثمة العيون اللوزية في السفارديم والمكتنزة الضخمة فى الاشكنازيم والعيون المغولية المسحوبة فى بعض يهود وسط آسيا •

وبعامة فان السفارديم اشبه بعنصر البحر المتوسط والاشكناز اشبه بالصقالبة الشماليين . وفضلا عن هذا فان الدراسات السيرولوجية البتت تماما ان اليهود يبدون فيما بينهم معدل تفاوت كبيرا جدا في فئات الدم مما ينفى تجانس الاصل ، وأكثر من ذلك لاتبدى تلك الفئات اى علاقة بفئات الدم عند اليهود السامريين ، مما يؤكد عمق انفصالهم جنسيا عن الأصل القديم •

واضح تماما اذن أن الحديث عن وحدة جنسيته بين اليهود ككل لا محل له من حقيقة أو علم على الاطلاق ، وأن

اليهود لا يعرفون الوحدة الجنسية أكثر مما يعرفون الوحدة الجغرافية · وواضح بالتالى أن النقاوة الجنسية المزعومة لهم انما هى محض « خرافة » كما يعبر ريلى · والواقع أن هذه قضية لم تعد ، بل لم تكن قط ، موضع جدل بين العلماء · فكما قال رينان من قبل ، ان المغزى الاثنولوجى لكلمة يهود ـ على الاقل فى شرق ووسط أوربا ـ قد انتهى منـــذ أمد طويل · وفى نفس المعنى آكد دالبى أنه ليس ثمة بعد أى شيء كقضية جنس يهودى على الاطلاق · وكما يقول ريلى من بعد : ليس اليهود جنسا بل مجـــرد « ناس » بكل بساطة ·

وعلى هذا الحكم الحاسم الاخير يعلق مؤلفـــو كتاب « نحن الاوربيين We Europeans وهم جونيان هكسلى وهادون وكارســوندرز : « ونحن نعتقـــد أنه عـلى صـــواب · ان اليهـــود لا يمكن أن يصـــنفوا لا كأمـــة ولا حتى كوحدة اثنولوجية ، بل هم بالأحرى مجموعة اجتماعية ـ دينية تحمل قدرا كبيرا من عنصر البحر المتوســـــط والارمنى وغيرهما كثير ، وتتفاوت تفاوتا عظيما فى الصفات الجسيمة » · ثم يضيف هؤلاء الكتاب قائلين « ان اليهود المحدثين ان لم يكونوا أرمينيين فى الاعم الاغلب ، فانهـم بالتأكيد يبدون من الصفات الارمينية أكثر مما يبدون من الصفات « السامية » وان النمط الجنسى الذى يميز طائفة السامريين ، وان كنا نلقاه بين اليهود المحـــدثين الا أنه بالتأكيد نادر بينهم » ·

ومن بعد ريلى ومن بعد معلقيه أيضـــا يقرر هوتون

Hooton بجزم قاطع : « حقيقة هى لا شك أن اليهود مختلطون جنسيا ومن أصول طبيعة متنوعة » . وهو اذا كان يجد فيهم قدرا ما من وحدة طبيعية ونفسية وحضارية ، فما هى بوحدة جنسية تماما ولا وطنية ولا لغوية ولكن الى حد ما كل أولئك . ويؤكد أشلى مونتجيو Ashley Montagu نفس الانتهاء فيقرر على النقيض مباشرة من كون ان اليهود ليسوا وحدة انثولوجية بل ، باصطلاحه مجرد « معزولة حضارية cultural isolate

والسؤال الآن : كيف تم اختلاط أو تخليط اليهود ، وما هى الادلة والشواهد التاريخية عليه ؟ لنذكر أو لنتذكر أولا أن اليهود من أصحاب نظرية النقاوة الخرافية يحاولون بكل وسيلة اثبات العكس على أساس أن حياة العزل فى الجيتو والعداء والاضطهاد الدينى عوامل مضادة للاختلاط والتزاوج . ولكن الواقع التاريخى اليقينى يكذب هذا التصور أو التصوير تماما . كذلك فانهم يتخذون من أسماء الاشخاص اليهودية دليلا على عدم التزاوج ، فعلى سبيل المثال أسماء كوهن وكوهين ... الخ تشير الى نسل الكوهانيم أى الكوهانين Cohanim أبناء هارون وكهنة المعبد القدامى (والاسم كوهين تحريف للكلمة العربية كاهن) وهؤلاء محرم عليهم كلية أى دم غريب . ولكن الحقيقة أن هذا الاسم خرج عن حدوده الاصلية وأصبح أكثر أسماء اليهود شيوعا . ومن الناحية الاخرى ، فان أسماء يهودية أصيلة وبحتة هي اليوم من أكثر الأسماء

شيوعا بين الملايين من المسيحيين في أوربا • فكيف حدث هذا بغير التزاوج والتحول ؟

الحق أن موقف اليهود أصحاب نظرية النقاوة ليس غير علمي فحسب ، ولكنه أيضا انتهازي ومغرض بوضوح، ولذا لا يمكن الاعتداد به فضلا عن الاعتماد عليه • ويكفي للتدليل على هذا الذي نقول أن نذكر موقفهم أيام اضطهاد النازية في ألمانيا • فلما كان كل شيء يقاس حينـــذاك بالجنس النوردي والاصل الارى ، فقد كان اليهود يدعون أنهم من ذلك الجنس والاصل ليفلتوا من عقاب ولعنـــة السامية • أما الان بعد اغتصاب فلسطين ، فكل دعواهـم أنهم ساميون لحما ودما !

ولكي نعرف أين الحقيقة في هذا الانقلاب الانتهازي الفاضح ، يكفي أن نورد تعليق هوتون على اضطهاد ألمانيـا النازية لليهود حيث يسخر قائلا ان اليهود ربمـــا كانوا يمتلكون من الدم النوردي مثلما يمتلك الالمان أنفسـهم ! ولاشك أن مما له مغزاه كذلك أن القليل من الكتاب الذين يأخذون بنظرية نقاوة اليهود الجنســـــية هم من دعاة النظريات العنصرية التي نبذها العلم تماما مثل هوستون ستيوارت تشمبرلن الذي يزعم أن تلك النقـــاوة هي سر قوتهم مثلما تجعلهم « غرباء بين كل الامم » !

التزاوج والتحـول اذن حقائق لا شك فيها ، وعليها يجمع جمهرة الانثروبولوجيين ابتداء من كين الى ربلى الى كون ... الخ . فهـذا كين يتكلم عن « الزيادات الضخمة من (الجنتيل) المتحولين » ، ويقول « ان الافتراض بأن اليهود ضموا قليلا او لاشيء من المتحولين هــو

الترافى لم يعد يعد مقبولا » • ويضغط مؤلفو «نحن الاوربيين» خاصة على نقطة هامة وهى ان نمو اعداداليهود في المهجر بعد الشتات بمعدلات غير معقولة انما يرجع في جزء منه الى التحولات الضخمة الى اليهودية اما ربلى فيقـرر ان ليس ثمـة ايسر من اثبات الاختـلاط والتزاوج والتحول بين اليهود والجنتيل في اوربا وخارج اوربا .

ولقد كان هناك طريقان أساسيتان لانتشار اليهودية وتمددها : التحول الدينى سواء من الوثنية أو المسيحية ، والتزاوج والامتزاج الدموى • وللتحول شكلان رئيسيان : التحولات بالجملة ، وهى معروفة محددة تاريخيا أهمهـــا حالة الخزر والفلاشة واليهود السود من التاميل واليهــود القرائين فى طوروس •

الشكل الثانى هو التحولات الفردية المستمرة فى كل مكان وزمان • أما التزاوج فشكلاه الزواج العلنى والسرى أو العلاقات الجنسية غير الشرعية • وكتاب اليهود يصرون على ضآلة دور التحولات بعامة والتحولات الجماعية بخاصة فى انتشار اليهودية • وعلى أية حال فلا شك ان اليد العليا كانت دائما للتزاوج ، حادثا ودفينا ومزمنا • وقد ارتفع التزاوج المختلط بين اليهود والجنتيل الى نسب عالية فى فترات الهدوء وتوقف الاضطهاد ، فاذا كان الزوج يهوديا نشأ الأبناء يهـــودا ، ولكن كان يحدث أحيانا أن تنتزع ديانة الزوجة اليهودية الابناء من ديانة الأب •

في ضوء هذه الاسس العامة ، نود الان أن نستقرىء وقائع التاريخ نفسه ، ماذا تقول وكيف تحكم في قضية الاختلاط والتحول . فاذا بدأنا عرضنا التاريخي من البداية ، فسنجد ان يهود فلسطين التوراة تخلطوا في عقر دارهم مع جيرانهم من الفلسطينيين (كما تدل قصة شمشون اليهودي ودليلة الفلسطينية) ومع جيرانهم من العموريين والحيثيين (كما يشير سفر حزقيال : « أمك كانت حيثية، وعموريا كان أبوك ») . وهذا الاختلاط الجنسي كان أقوى على حواف وهوامش كتلة هضبة يهودية المفتوحة نوعا منه في قلبها الوعر المعزول . وكثيرا ما فرض على اليهود الذين اتخذوا زوجات « وثنيات » من الاجانب المحيطين أن يتركوا الوطن الى تلك السهول المجاورة . كذلك فمن الثابت ابان الاسر البابلي الذى استمر ١٤٠ عاما أن كثيرا من اليهود تخلوا عن ديانتهم القديمة .

وبوجه عام فنحن نجد منذ بداية التاريخ أن الرفض للزواج المختلط بين اليهود والجنتيل لم يكن قط جنسيا بل دينيا ، بحيث ينتهى اذا تحول الجنتيل الى اليهودية . والواقع أنه في أيام اليهودية الاولى لم يكن الزواج من غير المؤمنين ممنوعا أبدا ، كما حدث فيما بعد . هكذا يذكر المؤرخ جوزيفوس أن يهود انطاكية نجحوا في تحويل الكثيرين الى عقيدتهم وأدخلوهم مجتمعهم . وقد حدث عدد كبير للغاية من التحول الى اليهودية بلا شك في القرن

الثاني الميلادى • ومن الامثلة الهامة النساء اليهـــوديات اللائى تم بيعهن كاماء وأخذن الى مقاطعة الراين كزوجات لجنود الرومان ، وبعض هؤلاء الجنود هجروهن عند نقلهم الى مواقع أخرى ، فشب أبناؤهم كيهود •

والثابت أن التحول والاختلاط كانا من المظـــاهر المتفشية قبل العصر المسيحى مباشرة وفى قرونه الاولى • فحين تشتت اليهود فى العالم المتوسطى وجدوا أنفسهـم ازاء اختيارين : اما أن يرتدوا وثنيين كجيرانهم الجـدد ، واما أن يحتفظوا بديانتهم • وهناك ـ كما يقول بيرجل ـ « اصبح الكثيرون ، ربما الاغلبية ، وثنيين ، وذلك لان من بين القبائل الاثنتى عشرة عشرا « مفقودة » كما تحدثنـا الروايات » • وفى حالة التحول كان اليهود يفقدون كيانهم الجنسى جنبا الى جنب مع كيانهم الدينى ، ويصبحون جزءا لايتميز عن الامة التى أقاموا بينها • أما اذا ظلــوا على يهوديتهم ، فانها اذن العزلة الاجتماعيـــة ، ومن ثم فلا تزاوج الا اذا تحول الوثنيون الى اليهودية ، وهذا بالدقة ما حدث مرارا وتكرارا لان اليهود قاموا بكثير من التبشير بنجاح عظيم عبر قرون طويلة ، وهذا ما يفسر جزئيـــا تنوعهم وتباينهم الجنسى • الا أن الموقف تغير بعــد أن أصبحت المسيحيةالديانة الرسمية للامبراطورية الرومانية، حيث أصبح التحول الى اليهودية صعبا ، ولـكن التزاوج والعلاقات غير الشرعية لم تتوقف •

أما فى العصور الوسطى حيث أصدرت المجـــالس الكنسيةقرارات صارمة بمنع زواج المســيحيين باليهود

كما فعل مجلسا توليدو عام ٥٣٨ ، ٥٨٩ ، ومجلس روما عام ٧٤٣ ، فان أغلب الكتاب يفسرها على أنها دليل على خطورة المدى الذى كان الزواج المختلط قد وصـــل اليه بالفعل ٠ بل ان اضطهاد القوط الغربيين فى اسبانيا لليهود فىالقرن الخامس والسادس الميلاديين انما يرجع ـ كمايؤكد كين ـ الى نشاطهم التبشيرى الخطير والى تفشى الزواج المختلط بينهم وبين المسيحيين ٠

وثمة أدلة أخرى على الاختلاط والتحويل على نطاقات اقليمية كبيرة ٠ فالسـفارديم قبل خروجهم من اسـبانيا كانوا قد اسـتوعبوا دماء أيبيرية وغربية وبربرية كثيرة فى عروقهم ٠ وفى شمال افريقيا من المؤكد ـ كما رأيناـ أن اليهودية كانت قوية الانتشار بين كثير من قبائل البربر قبل قدوم الاســـلام مباشرة ٠ وفى المغرب يبدو اليهود المتكلمون بالبربرية اليوم مختلفين بشـــدة عن يهـود السفارديم المتكلمين بالاسبانية فى المدن المغربية بينما أن اليهود المتكلمين بالعربية فى نفس المدن ينحدرون من أكثر من أصل يهودى واحد أهمه بلا شك العنصر البربرى ٠ أما فى أوربا فالأدلة التاريخية تشير بكل قوة الى أن أجداد الأشكناز اختلطوا مع أبناء غرب أوربا الى ما قبل الحروب الصليبية الأولى اختلاطا أقوى من اختلاط أجدادهم الأحداث من أبناء البلاد السلافية فى شرق القارة ٠ فغزارة شـعر اللحية والجسم وتموج شـعر الرأس ، الى جانب عرض الرأس ، تدل على تأثير جنسى البى فرنسى أو ألمانى أكثر منها مؤثرات سلافية ٠

أما عن التحول ، فقد صدر كثير من التشريع الصارم ضد استخدام اليهود لخدم مسيحيين ، خشية تحولهم الى اليهودية ثم الزواج بهم . الا أن الأرجح أن هذا المنع لم يجد نفعا ، حيث نجد على سبيل المثال كبير أساقفة المجر يقرر فى عام ١٢٢٩ أن كثيرا من اليهود كانوا يعيشون حياة غير شرعية مع زوجات مسيحيات ، وأن التحولات « بالآلاف » كانت مستمرة وفضلا عن هذا ، فلم يكن القانون يتضمن حماية العبيد والأقنان من امكانية التهود والزواج من اليهود .وفى اسبانيا والبرتغال بعد الاسترداد اجبر مئات من الآلاف من اليهود على التنصر بالقوة والتحول الى المسيحية حيث ذابوا بعدها فى السكان .

أما فى عصرنا الحـــديث فتتواتر الأدلة والاحداث الثابتة التى تؤكد التزاوج والتحول على حد سواء . فمع الهجرة الى العالم الجديد تحول كثير من الهنـــود الحمر والزنوج فى أمريكا الوسطى والجنوبية الى اليهودية ــ ولا علاقة لهم جنسيا ودمويا باليهود أصلا . ومع اختفـــاء التعصـــب الدينى فى أوروبا الصناعية ، وأكثر منه مـــع العلمانية المطردة ، انهارت الحواجز أمام التحول والزواج وتوسعت العلاقات غير الشرعية . واذا كانت التـــحولات الجماعية بالجملة قد قلت ، فقد زادت بصورة لافتة للنظر التحولات الفردية فى العصور الحديثة ، ويمكن أن نتخذ من بعض الاسماء الشهيرة مؤشرا فى ذلك الاتجاه : مثـــلا الشاعر هاينى والموسيقى مندلسون وغيرهمـــا من اليهود

الذين اعتنقوا المسيحية . وفى روسيا القيصرية كان حصول اليهود على المساواة المدنية رهنا بتحولهم الى المسيحية .

ومن الأدلة القاطعة بل والمثيرة على مدى اختلاط اليهود فى العصور الحديثة والوسيطة فى أوربا ماكشفت عنه تجربة النازية فى المانيا . فقد كان على المرء الذى يبغى إثبات الدم الآرى فيه ان يقدم نسبا يخلو لعدة أجيال من العناصر غير الآرية ، يعنى هنا اليهودية بالتحديد . ولكن المفاجأة أن التجربة كشفت ان عددا ضخما من الحالات من المواطنين الألمانيين « الى أقصى حد » ثبت ان أجدادهم وأجداد أجدادهم تجرى فى عروقهم الدماء اليهودية ! — تماما كما تردد عن ريشارد فاجنر من قبل ..

وفى العام الماضى فقط أخرج كاتب فرنسى كتابا كان له دوى كبير حيث أثبت أو حاول أن يثبت بتتبع شجرات الانساب الدقيقة لمعظم الشخصيات المسيحية البارزة من عائلات مالكة ورؤساء وزعماء ... الخ فى العالم الغربى كيف تجرى فى عروقهم دماء يهودية بدرجة أو بأخرى ، وبالعكس أن كثيرا من اليهود المعروفين داخلتهم دماء مسيحية . أما فى الولايات المتحدة ، حيث أعظم مستعمرة لليهود اليوم ، فمن المعلومات العامة للكافة والخاصة انتشار الزيجات المختلطة ووجود أنصاف وأرباع اليهود ... الخ ، لا سيما منذ القرن الماضى حين أصبح الزواج المدنى مباحا وقانونيا .

والواقع أن هذه النقطة الاخيرة تنقلنا الى أخرى لا تقل أهمية ومغزى . تلك أعنى ظاهرة ذوبان أو انصهار

اليهود واندماجهم أو امتصاصهم فى شعوب العالم المعاصر الحديثة assimilation ، وموقف الصهيونية السياسية منها • فالصهيونية اذ تحاول عبثا أن تجعل من اليهودية العالمية شعبا وقومية وأمة بل وجنسا مستقلا وليس مجرد طائفة دينية تقطع عبر ، وتجمع بين عشرات الشعوب والقوميات والامم والاجناس ، لا تزيف حقائق التاريخ الواقع فقط ، ولكنها تقاوم وتحارب حتمية حركة التاريخ التقدمية وتسعى الى تجميد تطور المجتمع الانسانى • فالصهيونية تعلم علم اليقين أن الاضطهاد الذى تعرض له اليهود فى أوربا الوسيطة والحديثة لا يرجع الى التعصب الدينى وحده بقدر ما يرجع الى طريقة حياة اليهود وانعزالهم وطبيعة حرفهم الابتزازية ومركب احساسهم المتضخم بأنفسهم وادعاءاتهم بالتفوق الموهوم ، وتعلم الصهيونية كذلك أن عصور الاقطاع والحكم الاوتوقراطى المطلق ومناخ الطبقية التقليدية كانت تشكل بيئة ملائمة وقوى ضاغطة ودافعة لهذا الاضطهاد بمثل ما أن هذا الاضطهاد ذاته بيئة ملائمة وقوة دافعة لليهود أنفسهم الى مزيد من الاصرار والتمسك بانعزاليتهم وانفراديتهم وتضادهم •

وهى - الصهيونية - ترى الآن أن روح الليبرالية المعاصرة السارية وتطور الوعى السياسى فى المجتمع الصناعى الحديث ومثل التسامح الدينى ان لم يكن اللامبالاة الدينية ، كلها ظواهر جديدة وخطيرة «تهدد» بانتهاء اضطهاد اليهود ونهاية ضد السامية ، وبالتالى تهدد بسقوط الستار الحديدى الذى ضربه اليهود حول انفسهم

واتخذوا التضاد بالسادى - المازوكى الذى افتعلوه مع بيئاتهم ، ومن ثم تهدد بذوبانهم في شعوب الامم ثقافة ولغة بل ودينا وجنسا .

ومن هنا تصل الصهيونية في انحرافها الى حد الشذوذ الفكرى والعنصرى ، فنجدها تحاول محمومة استبقاء مناخ الاضطهاد وشبحه وتجسيد اسطورته الى الابد لتوقف تيار الذوبان الغلاب الذى يظل مع ذلك يفرض نفسه كواقع قاهر يتمثل اخطر مايتمثل في التزاوج المختلط مع غير اليهود ، وفي تحول بعض اليهود الى عقائد اخرى . ولئن كان هذا اليوم اوضح واخطر مايكون في بوتقة الولايات المتحدة فان اوربا الغربية تعرفه ايضا بدرجة او باخرى . والخط التاريخى الذى اكد نفسه منذ البداية وهو تخلط وتهجن اليهود وذوبانهم جنسيا ، يعيد اليوم تاكيد نفسه برغم انحرافات وشعارات الصهيونية ، بل ويفرض نفسه اكثر منه في اى وقت مضى .

ولنقف هنا قليلا عند يهود الولايات المتحدة. الثابت أن اليهود حيثما حصلوا على المساواة القانونية الكاملة فى الحيثية المدنية ، كما فى الولايات ، فكثيرا ما يتزوجون من الجنتيل . فاذا أصر الطرف اليهودى على أن يغير الطرف الآخر عقيدته نشأ الابناء يهودا وظلت الاسرة يهودية . أما اذا تحول الطرف اليهودى الى المسيحية فقد يتزوج الابناء فيما بعد يهودا ويعودون بذلك الى اليهودية ، والا فان الاسرة اليهودية تنقرض فى النهاية . غير انه ليس ثمة حالة معروفة تحول فيها اليهود الى المسيحية ثم ظل الجيل الثالث يهوديا . وهكذا فان التحول الدينى يؤدى فى النهاية الى التمثل والانصهار مع المجتمع الامريكى .

والاحصائيات تدل على زيادة مطردة فى الزيجات المختلطة بين اليهود . فقد وجد أحد الباحثين الاجتماعيين

أن نسبة الزواج الداخلى بين اليهود فى مدينة نيوهافن عام ١٩٤٦ كانت ٩٧٪ ، وأن ٣٪ يتزوجون خارج الطائفة. ووجد باحث آخر أن نسبة الزواج المختلط فى نفس المدينة ارتفعت من ١ر١٪ الى ٣ر٦٪ بين ١٩٠٠ ، ١٩٤٠، أى أنها وصلت الى ضعف التقدير الاول . والواقع أن اليهود أكثر تعرضا للعلمانية المطردة اذا قورنوا بغيرهم من الأقليات الامريكية . والى جانب ذلك فانهم كمجتمع مدن أساسا يمتازون بمعدل مواليد متخفض، بل أشد انخفاضا منه بين أى مجموعة مدنية أخرى ، ولا يمكن أن يعوضوا أو يحافظوا على أعدادهم بالتزايد الطبيعى .

وفى النتيجة ـ هكذا ينتهى كاتب مثل بيرجل ـ فان يهود أمريكا لا بد أن يتناقصوا عدديا سواء على الاطلاق أو بالنسبة الى مجموع السكان . ومع تسارع واطراد العلمانية والانصهار فلا مفر لهذا التناقض من أن يشتد ويشتد . ومن هنا يمكن أن نعتبر اليهود كأقلية فى الولايات المتحدة « ظاهرة عابرة » فى نهاية المطاف ، ولا يؤخر اختفاءهم النهائى الا ضد السامية أكثر من أى عامل آخر .

لن يجدى اذن تصايح وصراخ الصهيونية العالمية شيئا ازاء حضارة العصر المتفجرة المعدية الكاسحة التى لا مكان فيها لعزلة وعقلية الجيتو ، وأين ؟ ـ فى قلب دوامة تلك الحضارة وفى عين اعصارها فى الغرب الاوربى

والامريكى ! واذا كانت العصور الوسطى هى عصر تحول غير اليهود الى اليهودية ، فان عصرنا أصبح بوضوح تام عصر تحول يهود الى غير اليهودية !

من هنا نفهم كيف أن الصهيونية « تتاجر » بالفعل فى الاضطهـاد ، تذكى ذكراه وتؤجج ناره كلمـا خبت جذوتها أو رمادها ، وتراه ضمان بقائها ، فى الوقت الذى تمثـل فيه اسرائيلهـا دولة المنتفعين بهذا الاضطهـاد • بل ان الفكرة الجذرية فى خلق اسرائيل ليست فى النهاية الا فكرة الجيتو بحذافيرها وانما على مقياس مجمع كبير • فهى رعاء موحد لاستبقاء انعزالية اليهـود على الجوبيم وتضادهم معهم : انها الجيتو دولة أو هى دولة الجيتـو • ولكن كما ذاب ويذوب الجيتو فى الخارج لن يمضى وقت طويل حتى يذوب ويزول جيتو اسرائيل الى الأبد •

وبعد ، فلقد انتهت رحلتنا عبر التـاريخ بحثا عن الأدلة والشواهد اليقينية على اختلاط وذوبان اليهـود ، فهل يمكن من محصلة هذا العرض المفصل أن نضع أيدينا على جوهر وميـكانيزم العملية كلهـا ؟ نعم ، وجغرافى يهودى بالذات ـ هنتنجتون ـ هـو الذى يضعهـا بين أيدينا ! فطوال التاريخ ـ كمـا يقول ـ نلمح ظاهـرتين أساسيتين : أعداد ضخمة من غير اليهود تدخل اليهودية، وفى نفس الوقت أعداد من اليهود لا تقل ضخامة تخرج من اليهودية •

وفى النتيجة فان جسم الطائفة ليس ثابتا جنسيا بل هو متحرك وفى تغير داخلى مستمر وفى ابتعـــاد دائم عن الأصول الأولى بحيث يتضاءل أبدا وباستمرار حجم النواة النووية الحقيقية من بنى اسرائيل التوراة فيهم حتى لتكاد تختفى وتنقرض فضلا عن أن تظل قابلة للتعرف عليهـا وتحديدها • انها عملية احلال وابدال مزمنة دائما ، معدية أحيانا ، ظاهرة ومستترة ، وئيدة ربما ولكنها أكيدة قطعا • انها تكاد تقول عملية « تغيير دم » كلية وشاملة •

وفى النتيجة يكاد يصـــبح جسم اليهــــود فى آخر المطاف شيئا مختلفا انثروبولوجيا عن يهود التــوراة ان لم يكن لا علاقة له بهم تقريبا أو فى الأعم الأغلب • ويتأكد هذا كله حين نتذكر ما سبق أن ألمعنا اليه بشأن تعداد اليهود حيث بدأوا الشـــتات بأرقام هزيلة جدا ولكنهم سرعان ما بلغوا الملايين رغم كل المذابح والاضطهادات •

نستطيع اذن أن نخلص من هذا كله بثقة واطمئنان الى أن اليهــــود يتألفون من دماء مختلطة كأشد ما يكون الاختلاط • واذا كان ثمة خلاف بعد هذا ، فانمـا يدور حـــول المدى والدرجة والى أى حد • هنــا نجـــد رأيين أساسيين : فيرى ربلى أن اليهـــود يأخذون أينما كانوا صفات السكان الذين هم مقيمون بينهم ، وأبرز ما يتمثل هذا فى شكل الرأس ، الاســاس الانثروبولوجى الاول والجوهر ، ثم الى حد ما فى لون البشرة ، وبناء على هذا

يقبل رأى لومبروزو Lombroso القديم من أن اليهود جنسـيا آريون أكثر منهـم سـاميين أو بتعبير آخر أنهم أوربيون تهودوا أكثر منهم يهودا تأوربوا ·

« والى نفس المدرسة والرأى ينتمي مؤلفو « نحن الاوربيين » : « ان اليهود ـ هـكذا يؤكدون ـ من أصل مختلط ، وقد ظلوا باستمرار يزدادون اختلاطا » · ثـم يضيفون « كان هنـاك دائمـا قدر معين من التزاوج بين اليهود وغير اليهود من سكان البلاد التى أقاموا فيها ··· بحيث أن عددا من الجينات المستمدة من اليهود المهاجرين يتوزع بين مجموع السكان ، وأن المجتمعات اليهـودية أصبحت تشبه السكان المحليين فى كثير من الخصائص · وبهذه الطريقة أصبح يهود افريقيا وشرق أوربا واسبانيا والبرتغال ··· الخ مختلفين بوضوح عن بعضهم البعض فى النمط الجسمى » ·

ويؤكد نفس الكتاب الفكرة فى موضع آخر قائلين « والنتيجة أن يهود المناطق المختلفة ليسوا متماثلين جينيا وأن السكان اليهود فى كل بلد يتداخلون ويتشابكون مع غير اليهود فى كل صفة يمكن تصورها · وكلمة يهـودى صحيحة كوصف اجتماعى ـ دينى أو شبه قومى أكثر منها كتعبير اثنولوجى فى أى معنى جينى (ولو أن هذا لا يقصد به أن اليهود أمة بالمعنى المفهـوم للكلمة) · وكثير من الصفات « اليهودية » هى بلا شك نتاج التقاليد والتربية

اليهودية خاصة رد الفعل ضد الضغط الخارجى والاضطهاد أكثر منه نتاج الوراثة » ٠

ومرة ثالثة يضغط هؤلاء المؤلفون على نفس الانتهاء فيقولون ان « ماحتفظوا به وورثوه ليس « صفات جنسية» بل تقاليد دينية واجتماعية ٠ فاليهـود لا يؤلفون جنسا محددا وانما مجتمعا يشكل جماعة شبه قومية ذات أساس دينى قوى وتقاليد تاريخية خاصة٠ وانه لخطأ غير مشروع أن نتكلم عن « جنس يهودى » تماما كمـا لو تكلمنا عن جنس آرى » ٠

هذا عن الرأى الاول فى اليهود ٠ أما الرأى الثانى فيمثله كون الذى يقبل تشكلهم بصفات السكان المحيطين لكنه يرى فيهـم الى جانب ذلك آثار الاصل الفلسطينى العبرى القديم بخصائصه المتوسطة ، وبخاصة فى شكل الوجه الطويل وأبعاد أو حجم الرأس الصغير ٠ ومن هذا المنطلق يدير كل مناقشته على أساس أن اليهود اليوم فى بيئاتهم المختلفة ليسوا مجرد جماعات من أبناء تلك البيئات تحولوا الى اليهودية ، وانما هم فى الأغلب الأعم يهود حقيقيون من أبنـــاء الشتات الفلسطينى امتزجوا دمويا بأبناء تلك البيئات الاصليين : مثلا : يهود العراق يهود حقيقيون وليســوا عراقيين تهــودوا ، يهود بخـــارى والتركستان ليسوا مجرد تاجيك أو سارت تهـودوا بـل أصلا يهود ولكن آستعرضت رؤوسهم بالاختلاط بهؤلاء ، ويهود وسط أوربا ليسوا ببساطة أوربيين تهودوا وانما

يهود تاوربوا ••• ويقـدر كون ـ كمجرد تخمين بحت كما يعترف ـ أن نسبة عنصر البحر المتوسط الفلسطيني الأصلي في يهود أوربا الأشكناز قد تزيد على نصف جميع العناصر الداخلة في تكوينهم ، وهي بذلك أهمها •

ومن هذا كله ينتهي الى أن اليهـود « ليسوا مجرد كومة عشوائية grob-bag توحد بينها رابطة مشتركة من الدين بلا تماســك بيولوجي أكثر ممـا لوحدات عفوية كمســتمعي الراديو أو عاملات الحياكة» وقد يمكن أن نعد موقـف هنتنجتون قريبـا من موقف كون ، حيث يسمي اليهود ـ بلغته الخاصة ـ «مجمرعة قربى Kiru » شأنهم في ذلك شأن البيوريتان أو الماوري أو الاغريق (كذا) • غير اننا نرى في هذه التشبيهات المتنافرة ما يعقد الصورة أكثر ممايبسطها ، ويكفي أن نتخذ من كون علما على الرأي ورمزا له •

أين تقع الحقيقة بين هذين الرأيين ـ والفارق بينهما فارق كبير في الدرجة يوشك أن يكون فارقا في النوع ؟ هذا هو السؤال • المحقق أننا لا يمكن علميا أن نستبعد من بعض من يهود العالم نسبة ما من الاصل الفلسطيني القديم • ولكن من المحقق أيضا أن تقدير كون وتصويره يبالغ بعامة في تلك النسبة • فالملاحظ أولا أن الفروق الجسمية التي يسجلها بين اليهود وجيرانهم ضئيلة غالبا وواهية جدا أحيانا • وثانيـا وأهم من ذلك أنه ما دامت الدماء الاجنبية الغريبة قد غزت اليهود وداخلتهم ـ حتي

ولو كانوا من أصل فلسطيني قـديم ـ الى الحـد الذى يقربهم ـ على الاقل ـ من هؤلاء الجيران ، فقد ابتعـدوا وانفصلوا تماما عن ذلك الاصل السحيق .

وليس من المتصور ـ أليس كذلك ؟ ـ غير هذا بعد نحـو ألفى سنة من التشتت والاختـلاط ، لا سيما اذا تذكرنا ـ وهو اعتبار هام للغـاية ـ أن كل قوة يهود الشتات حين خرجت من فلسطين بعد هدم الهيكل الثانى لم تزد عن ٤٠ ألفا ! وهذا الرقم وحده يكفى ليوحى ، رغم كل قيود العزل والاضطهاد ، بأن يهود الشتات الاصلاء قد ذابوا وانصهروا وضاعوا فى محيط المهجر كقطرة فى بحر، وأن يهود العـالم اليوم فى سوادهم الأعظم هـم أجانب متحولون أكثر منهم يهودا متجولين ...

ماذا يتبقى فيهم اذن من بنى اسرائيل التوراة أو من بنى اسرائيل التوراة فيهم ؟ ان من يمكن أن يعد منهم من نسل بنى اسرائيل التوراة حقا ومبـاشرة لا يزيدون على نسبة بالغة الضآلة الى أقصى حد . مثـلا فى أواخر القرن الماضى يجد الانثروبولوجى المخضرم المعروف فيلكس فون لوشان Von Luschan أنه « من بين يهودنا المحدثين نحو ٥٠٪ عراض رؤوس ، ١١٪ ذوو بشرة بيضاء ، وما لا يزيد عن ٥٪ يتفقون مع ماعرفنا أنه النمط السـامى القديم ». وهذا يتفق تماما مع ما تؤكده دراسة حديثة جدا قام بها فى العام الاخير فقط أنثروبولوجى بريطانى هو جيمس فنتون على يهود اسرائيل توصل فيها الى أن ٩٥٪ من اليهود

ليسوا من بنى اسرائيل التوراة، وانما هم أجانب متحولون أو مختلطون ·

ولئن صح هذا ـ ولعله صحيح ، وهو بالتأكيد أقرب الى الصحة والمنطق من تخمينات كون ـ فمعناه أن الصلة الجنسية والجينية بين يهود اليوم ويهود التوراة منبتة وفاقدة تماما من الناحية العملية ، وأنهم بالفعل أوربيون سلاف أو آريون أكثر منهم ساميين · وهذا يصدق على الأشكنازيم فى أوربا ، وعلى امتدادهم الامريكى الذى زاد اختلاطه فى البوتقة الامريكية ، أكثر منه على أية مجموعة أخرى من اليهود ، مع ملاحظة أنهم ـ الأشكنازيم ـ هم السواد الأعظم من يهود العالم عدديا ·

والخلاصة الموضوعية ان يهود العالم اليوم مختلطون في جملتهم اختلاطا بعد بهم عن اى اصول اسرائيلية فلسطينية قديمة حتى لم تعد هذه تمثل في تكوينهم الا قطرة في محيط . وإذا كان ثمة تحفظ ما ، فهو ان هناك مراحل ودرجات من هذا التخليط ، فبعض المجتمعات اليهودية كيهود التركستان اقل تهجنا وتخلطا والبعض اكثر كالاشكنازيم . غير أن الحقيقة الحاسمة والفاصلة هى أن الاقل تخليطا انما يمثلون عدديا نسبة بالغة الضآلة من مجموع اليهودية العالمية ، بينما ان المختلطين تماما والذين ابتعدوا جدا او كلية عن الاصول الاولى يشكلون الاغلبية الساحقة منهم . ومن هنا فلاجناح علينا اذا نحن قررنا في النهاية ان اليهود اليوم ليسوا من بنى اسرائيل ، وان هؤلاء شيء واولئك شيء آخر انثروبولوجيا ، والا رابطة بين الطرفين الا الدين والدين فقط .

أفكار خاطئة

وتخريجا من هذا وترتيبا عليه ، تسقط على الفور عدة أفكار ومعتقدات شائعة ومتفشية ولكن لا ظل لها من الحقيقة فى نظر العلم الصحيح • فأولا ، ما دام اليهود لم يعودوا من الساميين فى شىء ، فيمكننا هنا أن نرى الخطأ الشائع الفاشى ، ان لم يكن المغالطة الكبرى العامدة، فى تسمية اضطهاد اليهود « بضد السامية » ، فنحن فى الحقيقة ازاء « ضد اليهودية » ببساطة وبلا تعقيد • ولا تفسير لهذه التسمية الخاطئة الا أنها تعتمد على أسس الانجيل والتوراة التى تسبق بكثير التغير الجذرى والاحلال والابدال المطلق الذى لحق دماء اليهود • والاضطهاد النازى لليهود فى ألمانيا لم يكن فى جوهره الا اضطهاد ألمان لألمان ، لا يقل معظمهم عنهم فى الآرية والنوردية ، وانما يختلفون فقط فى الديانة وطريقة الحياة •

يسقط كذلك ببساطة وتلقائية أى دعوى قرابة دم بين العرب واليهود : قد يكون يهود التوراة والعرب أبناء عمومة ـ وانما تاريخيا فحسب حين بدأ الكل قبائل مختلفة من الساميين الشماليين وحين كانت العبرية لغة تشتق من الاصول العليا التى تفرعت عنها العربية ، وقد يكون من الصحيح ، بل انه لصحيح بالفعل ، أن اسماعيل أبا العرب واسحق أبا اليهود أخوة غير أشقاء وكلا ابن

ابراهيم ـ ولكن فى البداية فقط تصدق هذه الاخوة على تسليمها ، أما بعد ذلك فقد ذاب نسـل أحدهما فى دماء غريبة ووصل الذوبان الى حد الاحلال حتى أصبحنا ازاء قوم غرباء لا علاقة لهم البتة باسحق فضلا عن اسماعيل. ولا يمكن بعد أن اختفى يهود التوراة كشبح أن يكون يهود أوربا والعالم الجديد أقارب العرب جنسيا أكثر من قرابة الاوربيين والامريكيين للعرب ! وغير هذا ـ حتى لو قال به ملوك العرب ابتداء من فيصل بن الحسين الى فيصل آل سعود ـ ليس الا من قبيل أوهام العوام بل جهالات الملوك !

ان اليهود اليوم انما هم اقارب الاوربيين والامريكيين ، بل هم فى الاعم الاغلب بعض وجزء منهم وشريحة ، لحما ودما ، وان اختلف الدين . ومن هنا فان اليهود فى اوربا وامريكا ليسوا كما يدعون غرباء او اجانب دخلاء يعيشون فى المنفى وتحت رحمة اصحاب البيت ، وانما هم من صميم اصحاب البيت نسلا وسلالة ، لايفرقهم منهم سـوى الدين . اما اين يمكن ان يكون اليهود غرباء فى منفى ودخلاء بلا جذور فذاك فى بيت العرب وحده ، فى فلسطين حيث لايمكن لوجودهم الا ان يكون استعمارا واغتصابا بالقهر والابتزاز . وغير هـذا قلب بشع لحقائق التاريخ انثروبولوجيا وغير انثروبولوجى .

وانطلاقا من هـذا يسـقط كذلك أى ادعاء سياسى للصهيونية فى « أرض الميعاد » . فبغض النـظر عن أن القانون الدولى يتكفل بشجب وتفـجير ادعاءاتهم على أى أساس تاريخى أو دينى ، فان الانثروبولوجيـا تبدد أى أساس جنسى قد يزعمون فى هذا الصدد . فمن ناحيـة

ليس اليهود قومية ولا هم شعب أو أمة ، بل هم مجـرد طائفة دينية تتألف من أخلاط من كل الشعوب والقوميات والامم والاجناس • ومن ناحية أخرى فلا علاقة لهم جنسيا أو انثروبولوجيا بفلسطين ، وهم أجانب غرباء عنها دخلاء عليها مثلما يعد الاوربيون أو الامريكيون بالنسبة اليها • وهم حين يغتصبونها ليخلقوا منها اسرائيل الصهيونية ، فليست هذه عودة الابن القديم بعد رحلة طالت عبر الزمان والمكان ، وانما هي غزو الاجنبي الغريب بالاثم والعدوان•
أيضا وفي النهاية أن نرفع نغمة حذر أو تحذير حول قضية
وتداعيا وانطلاقا من هذا الانتهـــاء الاخير ، ينبغي

ليست هي القضية الفلسطينية ولكنها تشبهها أو بالاحرى تشبه بهـــا ، ونعني بذلك ما يسمى دعوة « الصهيونية الســـوداء » • فالاخوة الافريقيون في صحوة نهضتهم الحديثة قد وجدوا ـ كارث من عصر الرقيق ـ قطاعا منهم خارج افريقيا في العالم الجـديد يعيش في أدنى السلم الاجتماعي وتحت ضغوط التفرقة العنصرية الضارية• ومن ثم نادى بعضهم ـ جارفي والجارفية Garvey ـ بالعودة الى افريقيا الام كحل لشكلتهم في أمريكا • وبغض النظر هنا عما لاقته الدعوة عمليا وفكريا من فشل أو معارضة، فقـد كان أثيرا لدى أصـــحابها تشبيه الموقف بموقف الصهيونية : فجعلوا تهجير الرقيق الافريقي الى العـــالم الجديد هو « الخروج الاسود Black Exodus » و « الشتات الافريقي A. Diaspora » ، وجعلوا أفريقيا

الام هى « أرض الميعاد » و « الوطن القومى » ورؤيا العودة هى « الصهيونية السوداء » ...

والذى يعنينا هاهنا ليس الحكم على الدعوة أولها ، وانما أن ننبه أصدقاءنا الافريقيين برفق الى خطورة وخطأ التشبيه . فاذا كان زنوج أمريكا هم فعلا وحقا من سلالة افريقيا ، فان الاغلبية الساحقة من يهود عالم اليوم ليسوا من بنى اسرائيل أو سلالة فلسطين فى شىء . واذا كان لزنوج أمريكا نظريا حق تاريخى وجنسى فى العـودة الى افريقيا ، فليس لليهود مثل ذلك الحق بتاتا بالنسبة الى فلسطين . ومن ثم فلامجال ولاوجه للتشبيه بالصهيونية . بل انه لتشبيه يسىء الى فكرة العودة الافريقية أكثر مما يفيدها .

والصهيونية من جانبها تتلقف هذا التشبيه لتتقرب به الى زنوج الولايات المتحدة والعـالم الجـديد وتستدر عطفهم المخـــدوع على حركتهم العادية الغاصبة . انه اذن تشبيه غير موفق ، وهو غير صحيح الى ذلك وقبل ذلك ، ومن الخـير لأصدقائنا الافريقيين وخير قضيتهم وقضيتنا معا أن يسقطوه والفكرة الخاطئة التى تكمن خلفه .

المصادر

— W.Z. Ripley, The Races of Europe, Lond., 1900.

— C.S. Coon, The Races of Europe, N.Y., 1939.

— Julian Huxley, A.C. Haddon, A.M. Carr-Saunders, We Europeans, Pelican, 1939.

— J. Deniker, Les Races et les Peuples, Paris, 1926.

— Egon E. Bergel, Urban Sociology, McGraw-Hill, 1955.

— Ellsworth Huntington, Palestine and its Transformation, Boston, 1911.

————————, The Pulse of Progress, N.Y., 1926.

————————————, Mainsprings of Civilization, N.Y., 1945.

— C.S. Coon, «Have the Jews a Racial Identity», in Jews in: a Gentile World, ed. Graeber & Britt, N.Y., 1942.

Y.M. Goblet, Political Geography and the World Map, Lond., 1955.

A.C. Haddon, The Races of Man, Cambridge, 1924.

M.F. Ashley Montagu, Introduction to Physical Anthropology, Springfield, 1951.

Walter Fitzgerald, The New Europe, Lond., 1946.

Adolphe Landry, Traité de Démographie, Paris, 1949.

W.F. Ogburn, M.F. Nimkoff, A. Handbook of Sociology, London., 1953.

P. Sorokin, Contemporary Sociological Theories, N.Y., & Lond., 1926.

George Adam Smith, Historical Geog. of the Holy Land, N.Y. 1932.

ـ نجلاء عز الدين : العالم العربى ، القاهرة (مترجم)

ـ جمال حمدان : المدينة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٤